منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1667) السنة السابعة - السبت (5) كانون الاول 2009

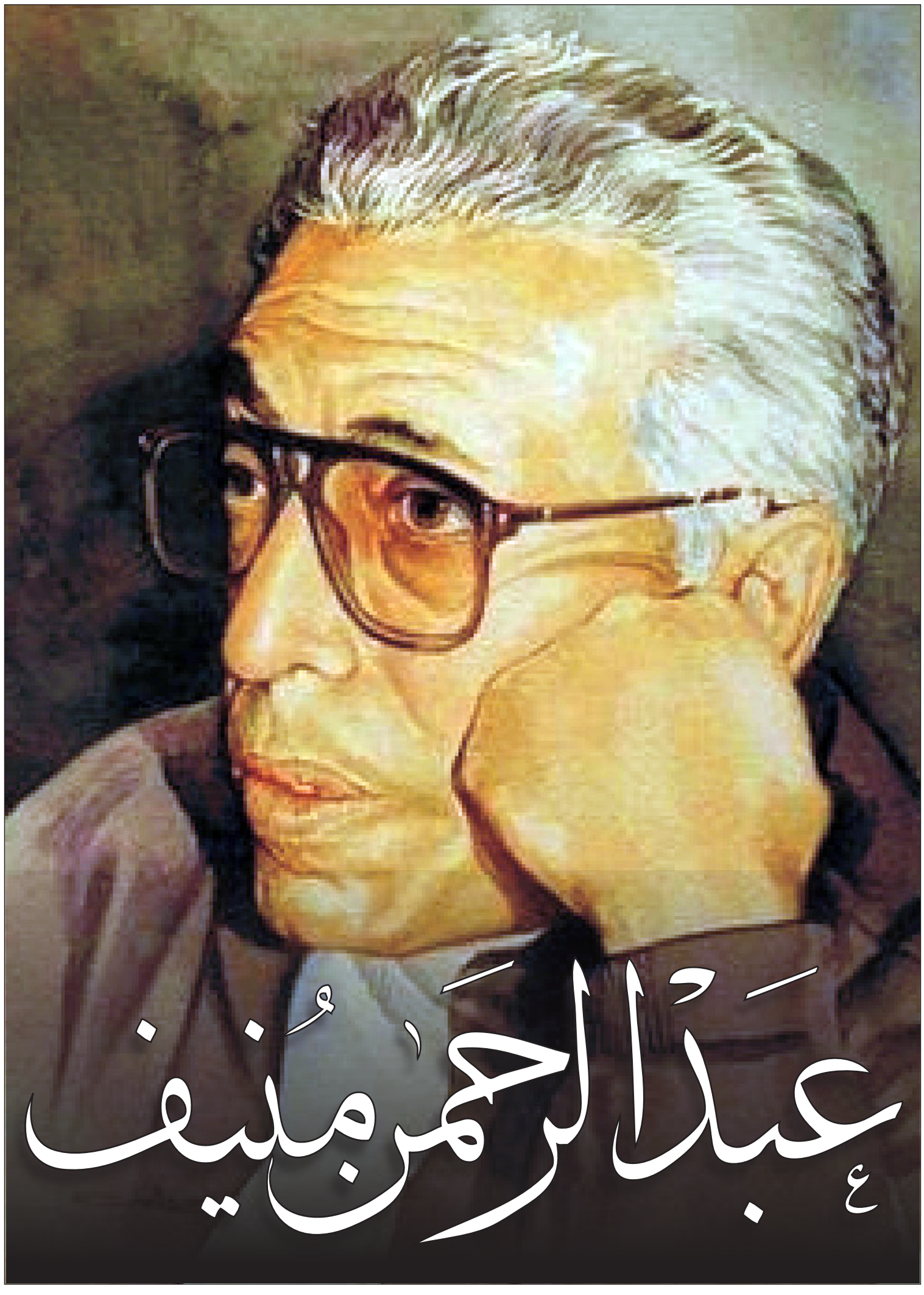

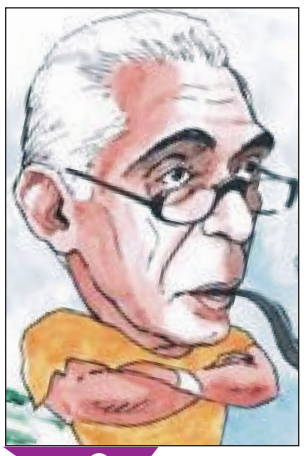

2
غائبٌ طعمة فرمان قارئاً عبدالرحمن منيف

8
هكذا تكلم عبد الرحمن منيف

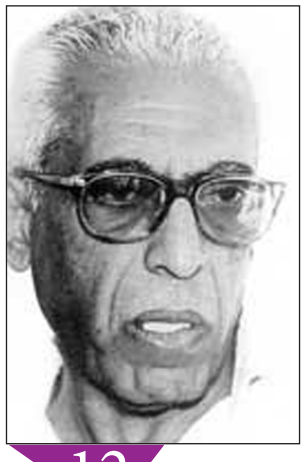

12
عبد الرحمن منيف وحديث خاطف عن الديمقراطية

غائب طعمة فرمان قارئاً
عبد الرحمن منيف

عثر على هذا المقال بين مقالات واوراق شخصية، وهو بخط الكاتب، يبدو ان (غائب) كان قد ارسله الى محمد كامل عارف. خلال السبعينيات، ولكنه لم ينشره في حينه، على الرغم من انه كان قد وضع هامشا توضيحيا في نهاية المقال يشير الى انه كتبه بتكليف من دار النشر السوفييتية (بروغرس) مقدمة لرواية عبدالرحمن منيف (الاشجار واغتيال مرزوق) التي صدر بالروسية في موسكو..

لم يكتب لاي كاتب عربي معاصر ان يوزع حياته على خارطة العالم العربي مثلما كتب لعبدالرحمن منيف، ابو عبدالرحمن نجدي تزوج في احدى رحلاته الى العراق وسوريا والاردن وفلسطين ومصر امرأة عراقية ولدت له عبدالرحمن في عمان.. وتوفي الوالد بعد فترة قصيرة من مولد ابنه، فاضطرت العائلة الى البقاء في عمان- كما يقول عبدالرحمن في رسالة خاصة – انتظارا للعودة الى نجد، ولعل عبدالرحمن قد قضى وقتا غير قليل في الاردن، فان له ذكريات فيها تتخلل بعض كتبه، وعاد الى نجد، ثم سافر الى العراق قدرس فيه، وعرف البلاد اهلها وطبيعتها، ظل يحمل جواز سفر سعوديا حتى عام ١٩٦٣، حيث اضطر الى حمل جواز سفر جزائري لبضع سنين، استبدله بعد ذلك بجواز سفر عراقي، وعمل ردحا طويلا في سوريا، بعد ان انهى دراسته العليا في يوغسلافيا، باختصاصه الاصلي: النفط، ثم في العراق، وقام برحلات مطولة الى اغلب البلدان العربية، وقد افاد ذلك ممارسته الادبية واثراها، وجعلها اكثر شمولية في نظرتها الى الاشياء والظواهر، وان كان قد مال به الى التجريد، احيانا: في رسم الشخوص، ورصد الظواهر حتى ليتساءل القارئ احيانا: من اي بلد عربي هذه الشخصية او تلك واين وقع هذا الحادث او ذاك؟ ومع هذا فقد اعطته هذه الرحابة في سعة النظر اكبر عدد من اوجه وابعاد المشكلة المطروحة، وتحسس الواقع المشترك بذلك التشابك الموجود بافلعل، وبعشرات الروابط التي تربط العالم العربي ككل، وتمازج المشاكل والهموم والتطلعات فيه، حتى يتعذر ان توجد في العالم العربي (واحة) او (طيبة) كما هي في الرواية المقدمة الى القارئ السوفييتي لاتتأثر في الجو العام السائد، ويتمازج المصير، كما يحلو لنا نحن العرب ان نسميه، ويزيد من احساس القارئ العربي بعنصر المشاركة الوجدانية والفكرية بمصائر الناس الساكنين تلك الرقعة الكبيرة المعروفة بالعالم العربي، حقا ان عبدالرحمن منيف واع بوجود فروق، ولتكن مؤقتة في واقع كل قطر عربي، وهمومه الخاصة، اذا صح التعبير الى جانب همومه القومية العربية العامة، فهو في احدى مقابلاته الصحفية يقول: كلما ازدادت رواياتنا محلية كلما اصبحت عالمية، بمعنى آخر كلما كانت اقرب الى الصدق في تصوير الجو المحلي، وكلما كانت اعمق في حياة الناس حتى ولو كانوا مجموعة صغيرة كلما اصبحت اقرب الى العالمية..

(مجلة "المعرفة" السورية العدد ٢٠٤، شباط ١٩٧٩)..

دخل عبدالرحمن منيف الحياة الادبية بروايته الاولى الاشجار واغتيال مرزوق التي صدرت عام ١٩٧٣ وفي الحال لفتت اليه انظار النقاد والقراء على حد سواء وبعد ذلك اصدر منيف خمس روايات هي كالاتي: قصة حب مجوسية ١٩٧٤، شرق المتوسط ١٩٧٥، حين تركنا الجسر ١٩٧٦، النهايات ١٩٧٨، وسباق المسافات الطويلة عام ١٩٧٩..

ويقول عبدالرحمن منيف عن دخوله الميدان الادبي، بعد ان كان معروفا في العالم العربي كأخصائي في النفط كنت حتى نهاية الستينيات مجرد قارئ جيد، وبعد ذلك ونتيجة اوضاع نفسية خانقة لم اجد سوى طريق واحد: الكتابة، وهكذا بدأت عام ١٩٧٠..

في رواية منيف (الاشجار واغتيال مرزوق) اشارات واضحة الى حدث مثير في تاريخ العرب المعاصر وهو ماسمي فيما بعد، بنكسة حزيران، اي هزيمة العرب عام ١٩٦٧، فهو يذكر حزيران في هذه الرواية عدة مرات، ويصور منصورا جنديا هزم، الجندية الطلقة التي اصابت منصور ، الهزيمة..

لقد كان ذلك صيفا ساخنا فاق في حرارته رمضاء الصحراء، سبب جرحا عميقا في الكرامة العربية، وهز العالم العربي دانيه وقاصيه، ونبه الكثيرين الى حقائق قاسية موجعة خلفها الواقع العربي، الذي كان يموّه ويطلي على الجماهير العربية بالتزوير والاكاذيب وقد واجهت هذه الجماهير مصيرا كالحا، ووجدت نفسها وحدها مع الخيبة المفجعة، واي شيء اخيب وافجع من الهزيمة؟! والمدركون وحدهم، ومن بينهم عبدالرحمن منيف، اقتنعوا بأنها لم تكن هزيمة الانسان العربي بقدر ماهي هزيمة الانظمة الرجعية السالبة لحقوقه، بقدر ماهي هزيمة للتركة السيئة من مخلفات الماضي والاستعمار وسخام القرون المظلمة..

وطبيعي ان تنتج تلك الهزيمة في المجتمع العربي ادبا، وقد انتجت بالفعل الوانا مختلفة من هذا الادب شعرا وروايات ومسرحيات وتأملات وحماسيات، وطوال سنين عديدة ظل المثقفون العرب ينزفون كتابات ويغرقون الصحف والمجلات ودور النشر بسيل لاينقطع من ردون الافعال والانطباعات والشتائم، والاحلام والتوقعات، وما يرونه صورة لما كان ولما سيكون، وكان قدر كبير من ذلكط متأثرا بلحظات وقوع الخيبة وبالاجتهادات الشخصية، ومن وحي الساعة، كما نقول نحن، اي للاستهلاك اليومي، وقد تبين في خضم المهمات الجديدة للفكر العربي والانسان العربي، ولكن ثمة جانبا منه مايزال محتفظا بصدقه وجدته واصالته، لانه رصد ابعاد القضية بعمق، وشخص سبب الانهيار، ومن هذا الجانب رواية عبدالرحمن منيف (الاشجار واغتيال مرزوق)..

هذه الرواية ايضا تطرح جانبا كبيرا من الاسئلة التي كانت تتردد على كثير من الالسنة في تلك السنة البغيضة وما تزال تتردد: لماذا ولماذا، والف لماذا. والاديب الاصيل، في كل مكان وزمان، لايقبل بشعار السعادين الثلاثة، لا اسمع ، لا ارى، لا اشم، فان هذه الحواس وحواس اخرى هي المصادر الرئيسة التي تمده بالمواد الاولية لقوته اليومي، وعندئذ يستطيع ان يتأمل ويكتب ادبا صادقا ويساهم في رصد الواقع، وصياغة المستقبل و(الانسان المجروح لاينسى ابدا) على حد تعبير احدى الشخصيتين الرئيستين في رواية منيف، على عكس الحكمة العربية القديمة: (عفا الله عما سلف) ولابد للمجروح، بحماس ولهفة المجروح ايضا، ان ينقب ويبحث ليكتشف المسبب لهذا الجرح، وحينذاك تعود الى الجريح عافيته الجسدية، وعافيته النفسية والفكرية ايضا، يعود اليه صفاؤه الذهني ووضح النظرة، او يتملكها ويكتسبها اكتسابا، اذا لم تكن من قبل. وهذه فضيلة التجربة والممارسة الحقيقية.

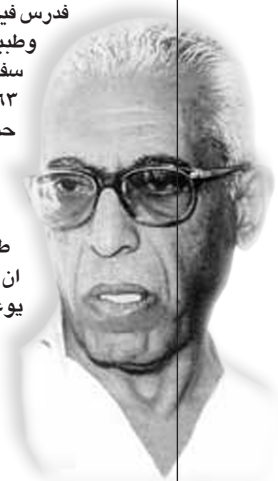

عبدالرحمن منيف روائي الصحارى المتخيلة

د. حسين الهنداوي

يعزو منيف هذا الجرح العميق في نفس الانسان العربي الى (القهر) فيقول (انا اعتبر القهر الهم الرئيس، وليس احد الهموم الر ئيسة (التي يجب ان تتناوله الاعمال الادبية) وما افترضه – وقد يكون هذا بحاجة الى برهان- ان موضوع القهر هو الموضوع الاساسي، والكبير والخطير في الحياة العربية المعاصرة، وفي الوقت الذي نستطيع ان نتغلب على القهر، ونخلق المواطن الحر، وفي جو انساني يمكن ان نكسب الحياة العربية كلها ولايمكن ان نتكمل عن العدالة والحرية الا من خلال المواطن الحر، من خلال قدرة الانسان على المراشكة وعلى التعبير وعلى ان يكون آمنا على حياته ومستقبله وان تتاح له فرص العمل والتنقل، هذه الحرياة البسيطة التي سمارسها كل انسان في العالم بنسب متفاوتة الى حد ما (نفس المقابلة الصحفية في مجلة المعرفة السورية).. فليس غريبا ان يصدر منيف روايته الثالثة (شرق المتوسط) ببنود من الاعلان العالمي لحقوق الانسان (يولد الجميع احرارا متساوين في الكرامة والحقوق.. الخ).

وهذه القناعات الاصيلة تفرش روايات منيف، لاسيما روايته هذه، والشخصيتان الرئيستان فيها ضحيتا قهر استلاب من قبل القوى السوداء، في واقع قاتم متعفن يعود في بعض وجوهه الى قرون خلت، وكلتاهما تصرخ في وجه هذا الواقع بمرارة ونقمة، وترفضه رفضا قاطعا، وهذه الصفة السلبية الراكدة الغيبية تصبح، في الجو العام للرواية، سحبة تحلي كلتا الشخصيتين:

-ما ادافع عنه بهشاشة هو عالمي الداخلي وبعض الاحيان حريتي..

-وعالمه الداخلي يطالبه برفض هذا العالم المجوسي قائلا له لا تندمج، وان استطعت يجب ان تساهم في تغييره..

-انا اكره طريق الحياة والعلاقات في بلادنا، ولن تزول هذه الا بثورة تحرق كل شيء..

ولماذا كل شيء؟ لان هذه هي المرحلة الاولى من وعي انسان يتلمس وعيه من خلال العذابات وتجربته واخفاقاته المؤلفة وارصاده للواقع ولان النقمة سلاح آخر ضد الاندماج، والنزول امام الامر الواقع، وهي التي تغذي الرفض، والسير بدون غاية، وان كانت احيانا معدومة الهوية، او العنوان وهذه النقمة والرفض الشديد هما اللذان دفعا بطل (شرق المتوسط) الى ان يتخلى عن الواقع كله، ويقول بتلك اللهجة الهجائية اللاذعة التي يعتمدها عبدالرحمن في كتبه، وبتلك السخرية المريرة اليائسة في سورة من سورات الحرقة والحنق الى حد ايذاء النفس: (سأشد السيفون في المرحاض، واترك كل شيء ينسحب الى تحت..) وهذه افكار رجل مجرد من ابسط الحقوق، حقه في الدفاع عن نفسه، حقه في الحرية، حقه في الحب ، في العمل، في الكرامة، في النظافة، في الثقافة الحرة، في السفر، في خلق عائلة وانجاب اطفال، في غرس اشجار، وفي بلاد تكون فيها البطالة، والبطالة المقنعة، والتسكع ظاهرة تلفت النظر، يكون العمل كما يقول الياس نخلة، احدى الشخصيتين الرئيستين في الرواية، هو الشيء الوحيد الذي يفتش عنه الانسان، يغامر من اجله، حتى لو تعرض للخطر، للموت، فالبطالة موت من نوع آخر.. وتقول الشخصية الرئيسية الثانية (عيب، يامنصور، ان تكون بلا عمل، فشرف الانسان ان يعمل)..

تقلب الياس نخلة في اعمال كثيرة حتى لم يترك عملا يعتب عليه على حد تعبيره، زاول كل الاعمال الصغيرة البسيطة التي تبقيه على صلة مع الناس ومع الحياة العريضة المهمومة المربوطة بالارض والعرق والامال الصغيرة والاحلام الكبيرة وكان كما يقال، لايستقر في عمل ولا يسخن الارض تحته..

ولكن الخيبة كانت تلازمه، ليس بسببه في اغلب الظن، بل بسبب الحياة التي لا تترك للانسان حتى ان يحلم، وينتهي المطاف بالياس نخلة الى ان يصير (مهربا) ويؤول، في النهاية، الى ما يؤل اليه المهربون، او اغلبهم على الاقل، والياس نخلة لهذا السبب ولمعاكسة الحياة له حزين، ولحزنه ما يبرره، لانه يرى الارض العربية المهجورة تتحول الى ارض مليئة باعواد القطن وروث الدواب.. وذلك حزن انسان اجبر على التخلي عن الارض التي ارتبط بها بالف وشيجة ووشيجة، وعن الاشجار التي يحبها فتظل الارض تحمل معنى الاغتصاب، ويظل الياس نخلة مطروحا من هذه الارض بغير ارادته.

والاشجار كما يفهمها الياس نخلة، تحمل معنى رمزيا عميقا، فهي تعني الخضرة والنماء، والخير والعطاء، التقاليد الجيدة والقيم الانسانية الممتدة جذورها عميقا في الارض كما هي الاشجار، وهو يشبهها احيانا بالاطفال: الاشجار مثل الاطفال، فاذا قطع الناس اشجارهم فان الرب يتركهم ويعطي المطر لغيرهم، لمن عندهم اشجار، بل هي احيانا ترمز الى العمل والكدح، كما يبدو لي: (اتعرف ماهي المدن؟ ان المدن هي البشر والاشجار) ولكن الناس، او القساة منهم، يقطعون (الاشجار) بلا مبالاة، ويهملونها ويزرعون في مكانها القطن. والقطن ايضا رمز، و عندما يرمز، لحد ما، الى الهشاشة والزوال والتفكك وعدم التماسك، فيقول الناس انه (رخون كالقطن) ومن يدري؟! قد يكون المؤلف قد رمز به الى الربح السريع الزائل، نكسة حزيران نفسها قد خلقت اناسا جنوا، واناسا اتخموا، واغتنموا ، وضؤلت عقولهم.. وكان خصام الياس نخلة منع النسا، هو في كونهم يضحون بالاشجار القيم الانسانية الاصيلة، الخضراء اليانعة النابتة في الارض من جل جني القطن، المحصول الزائل، الاعتبارات اليومية العابرة، بينما الحقيقة ان بلدة لاتنبت فيها الاشجار لايمكن ان يعيش فيها الناس، ولهذا تتحول الطيبة الى ارض غبراء لايطيق ان يعيش فيها يوما واحدا،، فيلجأ الى الجبل، والجبل نفسه يحمل معنى رمزيا في الادب، ولنذكر دستوفيسكي وابله، ذلك الذي هبط من الجبل، سويسرا، الى المدينة بطرسبورغ مثلما فعل الياس نخلة، فمسخته المدينة: (والمدينة البعيدة هي التي غيرتك، يا الياس ، اصبحت انسانا لاتعرف رائحة الارض، ولاتحب شيئا)..

والطيبة هي رمز الارض العربية التي يجري التخلي عنها من قبل اولئك الذين يغتنون بالقطن، بدلا من ان يعتنوا بالارض، ويمدوا جذورهم في الارض ولكن الى جانب هذه الصورة القاتمة هناك جلد، وهناك اصرار، وهناك ارتباط، والياس نخلة لم يفقد القدرة على العمل، ولا الرغبة فيه، ولم يهزم فيه هزيمة نهائية، لم يفقط صفاته الانسانية، ما تزال العداوات تحزنه، والصداقات تفرح قلبه، ومازالت عمليات البيع والشراء تنفره..

ان بطل منيف مايزال يقاوم عناصر الركود ويتحدى الاوضاع البالية، ويبحث عن البقايا الشريفة في الانسان قبل ان تسحق وتتلاشى.

وهو برغم معارضته للواقع الراهن، يحس بالارتباط، وتبقى الطيبة ماضيه، سعادته وتعاسته، وبرغم شعوره بالوحدة ولجوئه اليها، ولو كان يخاف منها، الا انه يعتقد بأن الانسان اذا كان وحيدا لايعرف كيف يتصرف، اما اذا كان مع الاخرين فانه يكون شجاعا وذكيا، وهذه الفكرة تتردد في رواية (شرق المتوسط) ايضا، حيث يقول المؤلف ان اقوى الناس واكثرهم قدرة على التصرف يفقدون في لحظات معينة، قدرتهم على ان يتصرفوا منفردين يجب ان يكون احد الى جانبهم كي يقول لهم مايجب ان يفعلوا، كما ان منيف اتخذ من مرزوق رمزا ايضا، فهو على الرغم من معرفت بأنه اغتيل، وقتله الجلاوزة وانصار الظلام، الا انه يقول (انه لايموت) لانه ضمير هذه الجماهير التي تواصل الحياة، برغم المعوقات والحواجز، وبرغم القهر والاضطهاد، لانها تؤمن بانتصارها الاخير، ولان الانسان العربي – كما يقول عبدالرحمن في مقابلته مع مجلة المعرفة، وهي المقابلة نفسها التي اشرت اليها سابقا عندما امتحن حقيقة في قضايا اساسية، اثبت انه يستحق الحرية، ويستحق ان ينظر اليه نظرة فيها الكثير من الانسانية، اعط للاخرين الحرية، تجدهم اقدر على ان يكونوا منتجين، وان يعبروا عن امكانياتهم الحقيقية..

وذلك هو التفاؤل والايمان باصالة الانسان وجدارته وقيمته، برغم ما سيصادفه القارئ من صور حزينة حالكة في ثنايا الرواية، ولكن من المفيد الن يعرف القارئ ان بلادا، او عالما كاملا يسمى بالعالم العربي، مشهورة او مشهورا بغناء وثروته النفطية والمعدنية، والبشرية والثروات الاخرى، فيه هذا القدر من التعاسة والمعاناة والشقاء والمرارة والحرمان فيه هذا القدر من القوى الرجعية السوداء، وفيه هذا القدر من اهدار الحقوق، ونكران انسانية الانسان، حتى لتبقى الحياة- كما يقول المؤلف- مجرد الحياة (بطولة، دون ضجة، بطولة صغيرة يمارسها الانسان يوميا من اجل ان يظل صادقا وشريفا)..

فكيف اذا كان الى جانب ذلك نضال ومقاومة واصرار على التغيير؟!..

برغم معارضته للواقع الراهن، يحس بالارتباط، وتبقى الطيبة ماضيه، سعادته وتعاسته، وبرغم شعوره بالوحدة ولجوئه اليها، ولو كان يخاف منها، الا انه يعتقد بأن الانسان اذا كان وحيدا لايعرف كيف يتصرف، اما اذا كان مع الاخرين فانه يكون شجاعا وذكيا، وهذه الفكرة تتردد في رواية (شرق المتوسط) ايضا، حيث يقول المؤلف ان اقوى الناس واكترهم قدرة على التصرف يفقدون في لحظات معينة

مجلة الاقلام ١٩٩٥

غير الذي يعرفه الرائح والغادي عنه من توزع وتنوع وحنين خفي الى مرابع البادية. وغير انه ولد لاب من نجد وام عراقية ومسقط راس اردني واقامة مصرية فسورية فلبنانية وحتى يوغسلافية وفرنسية قبل ان يرجع الى ديار الصبا من جديد. وغير انه درس الحقوق ولم يكملها وتخصص في اقتصاديات النفط ولم يمارسها واشتغل في الصحافة ولم يحبها، وغير انه تبعثن وتقومن وتمركس وتأنسن دون ان يغمض له على كسرة منها جفن. فان عبدالرحمن منيف ظل في اعماقه الصافية وفيا لقيم وروح صحراء محض عراقية . نجدية، ظلت حاضرة وطرية بين عينيه باحلامها واوهامها حتى لحظة رحيله المبكر امس وبعيد بلوغه السبعين بالكاد.

فالصحراء عندما تكون باشجار وطيب وخرائط ومتخيلة، تكون بالرواية والبوح المديد احرى. (الاشجار واغتيال مرزوق) فضحت الحماس ذلك منذ ١٩٧٣. بيد ان (شرق المتوسط) و(تقاسيم الليل) و(النهايات) و(سباق المسافات الطويلة) و(مدن الملح) هي في التحصيل الاخير، (رثائيات ذات) حميمة ومتعالية في آن اقرب الى، وربما استلهمت، ولو من بعيد جدا، وقطعا دون وعي، نفس بعض البكائيات الجاهلية، العمرو كلثومية خاصة، اكثر مما هي تسعى، كما توهم البعض عند الكتابة عن العمل الروائي لعبد الرحمن منيف، وربما كما توحي، الى تصفية حساب مع وعي سياسي او ايديولوجي فردي او قومي ما. فابن البادية، ولو عن بعد، لا يفاجأ بالهزيمة ولا يغره الانتصار لانه يتوقعهما دائما ومتناوبان غالبا الا ان الكمد هو ما يغدر به وغالبا بسبب مرارة الصفاء والوفاء لاسيما اذا كانت مترعة بالتوق للتغيير منذ الصبا.

وفي هذا يتفوق فن منيف وفكره على مثيله لدى معظم الروائيين العرب وقطعا على الطيب صالح او حنا مينه وحيدر حيدر من حيث ان (الاستحضار)، ولنقل النظري، لا يتم واعيا او اصطناعيا في الموضوع الا نادرا، انما يأتي تلقائيا فيما يتركز الاستحضار على شروط لحظة الكتابة ذاتها التي تعتقد ان مادتها ليست متواطئة مع الواقع التاريخي او الاجتماعي او السياسي او ما شابه رغم انها تداهنه او تلويه احيانا حسب مستوى قوة العادة لحظتئذ. من هنا التنازل الطوعي في النص عن اية سلطة بما فيها سلطة السرد والرثاء: ليس هناك استراحة او نياشين او شعارات للمحارب لان ليس هناك محارب اصلا، انما كل شيء يأتي لوحده ليمثل نفسه وليجدد اداة تطهير الروح من نزواتها الطارئة وهكذا عند شروق شمس كل يوم وهنا تكمن اسباب القطيعة مع المجموع الاول القبيلة او الصحراء او الامة كما يكمن سر الحنين اليها، اللواذ بها بالاحرى: كل شيء مجرد الى اقصى حد بما فيه الكتابة ذاتها.

لكن عبدالرحمن منيف لا يكتب نصا صحراويا او نصا للصحراء كما لا يكتب نصا قوميا انما نص كوني معتمدا على الصوت الواحد وبلا تعقيدات سردية وبروح وفضاءات صحراء ارض السواد العربية وحدها، صحراء النفط والبراءة وتمجيد الذات والقمع والتحولات والمقاومة والكرم والقسوة ومتعب الهذال والقرن العشرين. وهي فضاءات وروح يكاد يكون قد ورثها فطريا واكاد اقول ابديا كما تؤكده نشأة وسيرة ونجاحات وخيبات هذا الروائي المولود لاب من قرية قصيباء، من اعمال القصيم في وسط نجد السعودية، هاجر منها اولا ضمن احدى القوافل البدوية الى بلاد الشام، ثم ارجعه الحنين اليها، ثم هجرها وبعد رحيل متكرر بين نجد والشام، استقر ابراهيم المنيف في الاردن، فولد له فيها اخر ابنائه الذكور (عبدالرحمن) في العام ١٩٣٣، وبعد ثلاث سنوات توفي الاب ونشأ الابن في المدن.

وكأبن صحراء بالوراثة، والصحراء ام طاردة، لا ينضب خيال الروائي منيف عندما يهجرها انما ترافقه كظله البعيد اينما حل وهو يبتكر لها المواقع والهيئات ليدسها في حله وترحاله. فهي مع سجناء الضمير ومع تناقض الحرية . القومية، وحتى عندما تنأى عنه تماما، فان تاريخها هو ما يعود له كما في (ارض السواد)، كتابه الاخير الذي اراد له ان يكون ما يمكن اعتباره تاريخ العراق في القرن العشرين. بيد ان التجريد، الثروة العظمى للروائي الموروثة من تلك الام، تتحول مع نأيها الى ادغال وهذا ما بدا واضحا في اعمال منيف بعد (مدن الملح) التي تظل درة اعماله.

فالتاريخ، كما قال منيف نفسه مرة، حالة منجزة اغلب الاحيان، وبالتالي فان الاقتراب منه بمقدار ما يبدو سهلا، فانه شديد الصعوبة، لان مهمة الروائي يجب ان تتساوق مع الروح الكامنة في هذا التاريخ، وليس اعادة انتاجه، على حساب هذه الفسحة من الخيال، او عبر خلق الشخصيات التي لم يكن لها وجود تاريخي، والتي تعطي ملامح عن التاريخ الحقيقي الذي وقع.ومها يكن الامر، وكجبرا ابراهيم جبرا شر يكه في كتابة (عالم بلا خرائط) وفي روح (ارض السواد) ربما، والوافد مثله على العراق في سن متأخرة نسبيا، كان عبدالرحمن منيف روائيا عربيا كبيرا لكنه وكجبرا ايضا لم يكن مفكرا او مبشرا بنفس القدر.. فلقد كان مبدعا في قراءة التاريخ لا في كتابته لاسيما اذا كان ثريا وشائكا ومشاكسا كتاريخ ارض السواد.

ومثله ايضا كان اقرب الى اديب مهجر بالنسبة لبلديه الاصليين العراق والسعودية، كما كان جبرا مع العراق وفلسطين. اذ لم يستطيعا كما يحصل دائما، رؤية الاشياء التي قد لا يستطيع رؤيتها الا المصهور بها ومنها كل ساعة وكل يوم. ووحده المستقبل ربما سيقول ما اذا كان هذا سيشكل اضافة جديدة وتكميلية في قراءة او كتابة مرحلة تاريخية معينة ام لا؟.

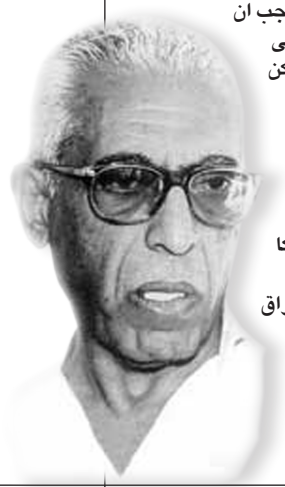

قراءة في إبداع عبدالرحمن منيف

اذا اردنا نموذجا لتمازج الاوشاج العربية وتشابكها، فاننا نستطيع ان نشير الى عبدالرحمن منيف الذي جاء الى الدنيا وابصرت عيناه النور في العاصمة الاردنية عمان عام ١٩٣٣، ابوه من نجد وامه من العراق، وعاش طفولته وصباه وشبابه الاول في عمان، ثم ذهب الى الدراسة في بغداد، بداية الخمسينيات، وهنالك تعرف على الاجواء الثقافية والتوجهات السياسية التي كان يمور بها المجتمع العراقي وقتذاك، فتعرف على العديد من الوجوه الثقافية والسياسية: جبرا ابراهيم جبرا، جواد سليم، الفنان ناظم رمزي، الفنان الطبيب قتيبة الشيخ نوري، وعالم النفس الفلسطيني الدكتور علي كمال وغيرهم.

شكيب كاظم

لقد جاء عبدالرحمن منيف الى العراق مرتين، الاولى بداية الخمسينيات وغادره اثناء التحضيرات لعقد حلف بغداد، بعد ان رأى الحلقة بدأت تضيق، هو الباحث الدائم عن الحرية، حرية القول والتعبير ثم جاءه ثانية منتصف السبعينيات، واصدر مجلة علمية مرموقة في اختصاصه الدقيق، اقتصاديات النفط والاسعار والاسواق، ظلت مجلته الاثيرة (النفط والتنمية) تصدر لسنوات باشرافه ورعايته لها، واذا وجد الظروف العامة تحتقن قبل حلول العقد الثمانيني فانه آثر الرحيل الى ارض الله الواسعة.

لقد جاء الدكتور عبدالرحمن منيف الادب من العلوم النفطية واقتصاد النفط، الذي درسه في جمهورية يوغسلافية، كان ذلك عام ١٩٥٨، لم يجد نفسه في هذا الاختصاص الضيق، عالم الارقام والاسعار وحسابات السوق هو السياسي المتفتح على شتى الاتجاهات والاراء والباحث عن هامش الحرية، فكتب عمله الروائي الاول (الاشجار واغتيال مرزوق) ونشر عام ١٩٧٣، الذي يبوب ضمن الادب الراصد لعلاقة الشرق بالغرب، والصدام الحضاري بين الطرفين، ضمن العديد من الروايات التي رصدت هذه الظاهرة، منذ امين الرحاني في روايته (كتاب خالد) مرورا بتوفيق الحكيم ويحيى حقي وطه حسين وذي النون ايوب وسهيل ادريس ويوسف عز الدين وليس انتهاء بالطيب صالح.

ويوم نشر (الاشجار واغتيال مرزوق) كان قد كتب عام ١٩٧٣ عمله الروائي الثاني (شرق المتوسط) الذي كان حذرا في كتابته ونشره، لانه كان يتناول احد المحرمات الكبرى في العالم العربي والشرق وهو عالم السجن السياسي، واذا كان الاديب العراقي متعدد المتواهب والاهتمامات، فاضل العزاوي، قد كتب روايته التي تناولت هذا المحرم، (القلعة الخامسة) وعنوانها يشف عن محتواها، التي صور فيها حال السجناء في سجن بغداد المركزي بباب المعظم، منظورا اليه من خلال نزلاء قلعة من قلاع السجن، القلعة الخامسة، فان الدكتور عبدالرحمن منيف، شاء ان يكتب في هذا اللون من الوان الكتابة الروائية، الفاصلة من عالم السجون، السياسية تحديدا، وظلت الرواية خارج طائلة المنع، لان ايا من الاطراف لايريد ان يكون هو المقصود بالعوالم التي يتحدث عنها السرد الروائي في (شرق المتوسط) وكل يريد ان يرمي جريرة ماورد على الاخر!! لذا تعددت طبعاتها، حتى أكاد اقول ان اية رواية عربية، لاتوازيها في عدد طبعاتها، اذ طبعت حتى عام ١٩٩٩، أثنتي عشرة طبعة، وهذا رقم مبهر ومفرح في آن معا، وقد واصل منيف الحرث في هذا المجال، واضاءته من جوانب متعددة، وفضح المسكوت عنه، فاصدر روايته (الان.. هنا) التي تشكل امتدادا لـ(شرق المتوسط).. واذا كانت (شرق المتوسط) تتناول الهم العام، فان روايته (قصة حب مجوسية) تناولت هما ذاتيا، اذ تصور حياة خاصة لطالب يدرس في اوربة وعن علاقاته الحميمة بالنساء وعوالم اللهو، ولعل فيها اسقاطات من حياة منيف ايام الدراسة في يوغسلافية، فكانت الرواية بحثا عن الذات.

في روايته (سباق المسافات الطويلة) يعود الى موضوع اختصاصه الدقيق، النفط ، ليس من خلال الارقام وحسابات السوق، بل من خلال تأثيراته على الحياة العامة في دول النفط، وما تركه النفط من نعم على شعوبها، وما خلف من ظلال شاحبة على هذه المجتمعات، وتحولها الى مجتمعات استهلاكية، ملقيا الضوء على ارهاصات عملية تأميم النفط الايراني من قبل الدكتور محمد مصدق رئيس الوزراء بداية الخمسينيات وماتلا ذلك من اضطرابات واضرابات عصفت بالحياة هناك لتنتهي بانقلاب عسكري قاده الجنرال زاهدي، ليطيح بمصدق، الذي امضى بقية العمر في السجن، وليعود الشاه الى عرش الطاووس، لم يسّم الدكتور عبدالرحمن منيف، الاشياء بمسمياتها ولكنه كان يقارب التاريخ المعاصر ويحايثه، بعيدا عن التطابق الكامل مع الاحداث، وابقى مساحة فاصلة بين التاريخ والادب الروائي الناهل من احداث التاريخ وصوره.

ولان الادب، والكتابة الروائية تحديدا، جهد فردي ذاتي، بخلاف الاعمال الابداعية الاخرى، السينما، المسرح، اذ يشارك في العمل عدد من الاشخاص، تمثيلا اخراجا، اعدادا للديكور، فان الرواية لاتحتاج الى من يشارك، لكن عبدالرحمن منيف شاء تتويج العلاقة الحميمة التي تربطه بجبرا ابراهيم جبرا، فاشتركا في تقديم عمل روائي اسمياه (عالم بلا خرائط) الذي يصعب على الباحث نسبته الى اي منهما اذا ما اراد دراسة المنجز المعرفي لمنيف او لجبرا.

واذا كانت (النهايات) حديثا عن الصحراء العربية، وقلة من الروائيين العرب من تناول عوالم الصحراء او البحار، مع ان ارضنا تطل على بحار عدة، وتغطيها رمال الصحارى الشاسعة، وهنا يقفز الى الذهن الجهد الروائي المميز للروائي الليبي الطوارقي (ابراهيم الكوني) في خماسيته (الخسوف) التي تناول فيها الحياة في الصحراء الليبية الممتدة حتى تشاد والنيجر التي تسكنها قبائل الطوارق الملثمون ومدن الجنوب الليبي، غدامس وهون وسبها وغيرها، واذ تناول الدكتور منيف عوالم الصحراء في روايته (النهايات) فانه آثر العودة الى عالم النفط وتأثيراته على الحياة الجمعية للناس، فكتب خماسيته (مدن الملح) التي تحكي كما يقول منيف، التحول الكبير بسبب اكتشاف النفط في الجزيرة العربية وما حواليها، وما ترتب نتيجة ذلك من قيام مدن الحديد والاسمنت والزجاج، وتغير الاوضاع والعلاقات وامتلاء الصحراء بضجيج الالات، واذا كان النفط هبة من الله لشعوب المنطقة، فان طريقة استخدامه والتحكم فيه هي التي تجهله ايجابيا في حياة الناس، ام تاركا ظلاله الكئيبة عليهم.

الكثير من المبدعين في العالم والوطن العربي، دونوا سيرهم الذاتية، محاولة لابقاء مايبقى في الذاكرة واذا كان جبرا ابراهيم جبرا، قد تناول حياته الاولى، طفولته وصباه في فلسطين وسجلها في كتابه (البئر الاولى) اردفه بكتابه الثاني الذي نال شهرة واسعة في عالم المعرفة والثقافة (شارع الاميرات) اذ صور جبرا في كتابه هذا حياته بعد وصوله الى العراق، والعمل استاذا في دار المعلمين العالية، عائدا في مايشبه انثيال الافكار واسترجاعها، وهو مايعرف بتيار الوعي، الى موطن الطفولة والصبا، فلسطين، فان الدكتور منيف تناول حياته الاولى في عمان وسطرها على الورق في كتاتبه (سيرة مدينة) هذا الكتاب الذي اختارته اللجنة الاوربية للثقافة، كي يترجم الى سبع لغات اوربية، كونه يمثل معلما بارزا من معالم الحديث عن المدن، ومحاولة ابقاء صورها في الذاكرة، اذ ان المدن مثل تضاريس الحياة والانسان، عرضة للتغير والتبدل، لذا فان هذا المشروع الاوربي، الذيب اختار كتاب (سيرة مدينة) لمنيف انما هو تأثيل للاصول، وابقاء لما ذهب عن العين، فلا اقل من ان يبقى في التصور والذاكرة، والا هل من المعقول ان لم تبق صروف الدهر وتغيرات الحياة شيئا من مدينة بغدا المدورة التي بناها المنصور عام ١٤٥/ هـ؟!! أيعقل هذا؟ في حين بقيت بعض الشواهد والشواخص من مدن اقدم من بغداد، بابل ، الحضر، اريدو، اور، دوركاليكالزو.. مثلا؟.

منيف متعدد المواهب والقابليات لم يقف عند الرواية، بل كتب دراسات نقدية معمقة، تناول فيها العديد من المبدعين، ممن غابوا عن الحياة نتناول من خلالا كتابة (لوعة الغياب) عددا من القامات الثقافية العربية: سعد الله ونوس، الشاعر الجواهري الكبير، نزار قباني، اميل حبيبي، جبرا ابراهيم جبرا، غائب طعمة فرمان، القاص والروائي الفلسطيني جميل حتمل، المفكر اللبناني حسين مروة، والروائي حليم بركات وغيرهم، واذا كانت رواية (الان.. هنا) امتدادا لرواية (شرق المتوسط) فان كتابه (ذاكرة للمستقبل) اضاءة واضافة نوعية لكتابه عن الذين غابوا (لوعة الغياب) اذ عاد فيه لدراسة الشاعر الجواهري الكبير، والروائي العراقي الذي امضى جل العمر في المنافي، غائب طعمة فرمان، وصديقه الاثير جبرا ابراهيم جبرا، لم يقف عند من ذكرت في قراءة ثانية، بل درس الروائي والقاص اللبناني المقل، توفيق يوسف عواد، صاحب رواية (الرغيف) التي تعد بمثابة باكورة اعماله الروائية، وانتهاء بعمله الثاني (طواحين بيروت) صور من خلالها الحرب الاهلية اللبنانية التي اتت على كل شيء وامتدت الى اكثر من عقد ونصف العقد من الزمان، لقد استغرقت الوظيفة، العمل الدبلوماسي تاتحديدا، توفيق يوسف عواد فانشغل بها، وتركت آثارها غير الايجابية، فانتج البقليل، اذا ماقيس باملوهبة التي حباه الله بها، موهبة الكتابة الروائية والقصصية، فانهت حياته قذيفة من تلك التي كان يترامى بها اللبنانيون اثناء حربهم الاهلية فسقطت على البناية التي يسكن فيها كان ذلك منتصف عام ١٩٨٩ فخسرنا موهبة كتابية رائعة.

كما درس في كتابه هذا (ذاكرة للمستقبل) الاديب السوري صدقي اسماعيل، الذي شغل لسنوات رئاسة تحرير مجلة (الموقف الادبي) ابن قضاء الاسكندرون السوري المقتطع الذي انجب عددا من المبدعين منهم الشاعر المعروف بدوي الجبيل، والشاعر سليمان العيسى، كما قدم شهادة بحق الروائي اليمني (زيد مطيع دماج) التي تخرمه الموت سريعا، قبل ان ينجز ماعقد العزم على انجازه.

الدكتور عبدالرحمن منيف، السياسي واسع الافق، الصادق مع نفسه، الذي غارد المنظمة السياسية التي عمل معها، حينما عجز عن تسويغ نقاط الاختلاف معها، ووجد مايختلف معه، اكثر من ما يأتلف واياه، رجل هذا شأنه كان لابد له وقد كتب في الرواية والنقد، ان يكتب في السياسة، فاصدر كتابه (الديمقراطية اولا.. الديمقراطية دائما) تناول فيه عددا من القضايا التي تشكل الهم العربي، منها: (العصر الرديء المثقف الصامت) و(القومية والهوية والتغيير) و(مدخل لدراسة اثر النفط في المجتمع العربي) واذا كانت بعض الدراسات تستمد ديمومتها من الموضوع الذي تناولته، فان بعضها الاخر تناول قضايا انية قد لايستدعي الامر اعادة نشرها في كتاب، لكن هي الذات الانسانية تحب نتاجها ولاتحتمل مجرد التفكير بمرحليته!! لشد ماكان يؤذي عبدالرحمن منيف لوعات الغياب الابدي لهؤلاء المبدعين، سواء من رطبته بهم صداقة ام لا، لقد كانت اللوعة- وما اكثر لوعاتنا واولاعنا- تلح عليه، لذا استقطر لوعاته واستمطرها دراسات رصينة، تناول فيها من طوقه الايام، في محاولة لابقائه طي الذاكرة وفيها، ترى أكانت كتاباته في لوعات الغياب، حثا للاقلام التي تنسى، حينما يمر عليه طائر الموت ويتخطفه بعيدا في الافاق؟ أكان يعد لوعاته، كتاباته دينا في الرقاب، علهم يعيدون بعضا منه اليه؟!! رجل هذا شأنه من حقه علينا ان نتذكره، نتذكر لوعاتنا بغيابه، وتلك الايام نداولها بين الناس.

> **اذا كانت (النهايات) حديثا عن الصحراء العربية، وقلة من الروائيين العرب من تناول عوالم الصحراء او البحار، مع ان ارضنا تطل على بحار عدة، وتغطيها رمال الصحارى الشاسعة، وهنا يقفز الى الذهن الجهد الروائي المميز للروائي الليبي الطوارقي (ابراهيم الكوني) في خماسيته (الخسوف) التي تناول فيها الحياة في الصحراء الليبية الممتدة حتى تشاد والنيجر**

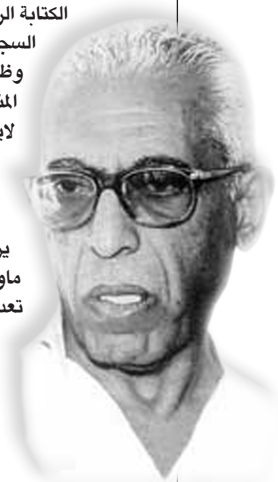

دراسة نقدية في روايات عبد الرحمن منيف

تحولات المكان في التيه العربي

علاء هاشم مناف

لذا اود ان اقف عند بعض هذه الخواص في البناء الروائي وهي التي وضعت الروائي امام مواقف تحرك بموجبها الهاجس الفكري المسؤول بنفس مقدار انصرافه الي البناء للمرتكز الفكري لايجاد المعادل الموضوعي في الرواية بعد ان انتقل الي هذا المرتكز قبل اكثر من ثلاثين عاما.حيث أسس هذا الروائي الكبير مدرسة روائية فكرية حديثة مسؤولة في الرواية العربية الحديثة، فهو صاحب خماسية (مدن الملح) التي عبر بها عن ادق التفاصيل في التشكيلات الاجتماعية العربية الصحراوية ومن هذه الخماسية تحددت التركيبة الذهنية العربية في هذه الصحراء وعلاقة هذه الرغبات الفردية والاجتماعية بالافضل نضجاً في المجالات الاوسع وعلاقة كل هذا الركام الاجتماعي العربي بشكل عام والصحراوي بشكل خاص لقطرات النفط وبلورات الرمل المتحركة باتجاه المجهول.كان الروائي الراحل عبد الرحمن منيف يناقش هذ ا الموضوع من منطلق اجتماعي وسياسي واضحين، فاشتمل النقاش الواقع الذهني والعقلي وتطلب الامر التوقف عند التعقيد في هذا التنوع واثره في خواص الموروث السياسي المتشعب والذي حاول الروائي ان يعبر عنه ذلك التعبير الناضج في ادق رغبةٍ عارمة توخت الحدة واتخذت الجدة العقلية منطقاً حيث توضح هذا في روايته الاولى (الاشجار واغتيال مرزوق) باعتبارهما خواصاً ضرورية في تشخيص التداعيات في الذات الجمعية العربية حيث تكلل هذا المشروع الفكري في روايته (شرق المتوسط) وهي الرواية التي ارخت الاضطهاد السياسي في الوطن العربي وحاول الروائي ان يمسك باللحظة الحاسمة الي منطق الايحاء الضمني القيام بعملية التكثيف في الرؤية العقلانية مما اجهده في تبيان ما كاد ان ينصرف اليه الروائي الي الخواص العاطفية، فجاءت العاطفة ابوية فكرية مسؤولة في اطار هذا المعادل الموضوعي وبقي الاساس الفكري في البناء الروائي هو الهاجسٍ عند الروائٍي واراد من كل ذلك البناء هو ايجاد رغبةً واهتماما واسعٍ ليجعل التعبير في الرؤية الروائية هي الاشد نضجا، وهذ ا ما توضح في روايٍته (سباق المسافات الطويلة) التي اشتملت موضوعا متعدد الابعاد في الرغبة الفورية للنسيج الاجتماعي الصحراوي بانطباعات ليس لها حدود.ومن المعروف ان الروائي عبد الرحمن منًيف اعٍتمد المتداعيات الواضحة والغامضة والمسرفة احياناً في الرؤية الجمعية، بحيث اخذت منافذها الدقيقة في تلافيف اللحظة الحرجة من تعقيد واحتواء لكل ما وقع علي هذ ه الارض القاحلة الرمال، وان الاقامة تبدأ بالتضحية وبالوضوح للوصول الي الاشكال الايحائي في روايته (النهايات) لتبدأ الرحلة متناقضة من الناحية السيكلوجية باعتبارها خلاصات بصرية واضحة وقدرة على تصوير الحدث باعتبار ان الهدف عند الروائي هو هدف يتعلق بٍمنهج رٍؤيوي يعنٍي ما يعنيه في الاهمية هو تقديمه موقفا حسيا وتفصيليا يؤكد عنايته في الملاحظة والبناء وقوة في الانجاز الفكري وبهذا الموضوع يبدو ان الروائي قد تقدم في رؤيا (هيوم) من ان الهدف الرئيس في البناء الروائي هو وصف هذا الإحكام الاجتماعي والدقة في التعبير عن المكتشفات في الانجاز الروائي الحديث اضافة الي الحشد المكثف في الوصف الذي اخذ مكانه المناسب عند القارئ، فالروائي اعتمد المرايا المتجاورة والملتهبة في تشديد الحاجات عبر الصورة، فكانت الرؤية عند عبد الرحمن منيف هي: الصفاء الفكري الرحب الذي تكون تحت ظلال معشوشبة عرشت فوق ينابيع متدفقة بالماء خلفت وراءها العري الخرفي وارجعت الخضرة الزاهية الي اوراق الاشجـار (حيث يكون مرزوق) النبع الاول فوق الصحراء العربية القاحلة وبيق مرزوق هو التيه في الضفة الاخري من النهر حتي يأتي البلل العربي وتهب ريح الصحراء العربية لتجرف اليٍباب الذٍي حل بهذه الارض، والروائي بني مرتكزا روائياً يدور حول المسؤولية الفكرية التي تصور الوعي والشعور بمستقبل العرب البتروليٍ وعلاقة هذه الثروة بمستوي الوعي الحضاري مستقبلا ويري ان الذات العربية قد هزمت امام مرتكز القيمة في انموذج الحضارة وخواصها في هذا الاشعار الذي لم يبق في حلقاته ثابتاً مدي الدهر والروائي عبد الرحمن منيف وجد التعبير عن هذه المدن التي بقيت تعاني المعادل الموضوعي وتعمل من اجل العثور علي مرتكز بعد غياب هذه الثروة النفطية، فكانت المدينة تكبر وتكبر حتى اصبح مبالغا فيها وفقدت العاطفة والتواضع وبقيت تائهة بين الفيافي والوهاد تتعثر بهذا المكٍان الذي غاب عنه الاشعار والتجربة الحسية بعيداً عن الامعان في هذا المنحدر الخطير، وبقي عبد الرحمن منيف يمنح هذا التيه معراج الاستقطاب في روايته (قصة حب مجوسية) التي وحدت هذ ا الانفجار بتجربة شعورية فاعتبرت هي التجريبية لهذه الشخصية، فالروائي كان يتحرك وفق صياغات تجتذب الرمز في هذه الشخصية الصحراوية وتأثيرها وتأثرها بموضوعية الفزع من هذه الحياة التي يغمرها الجفاف حتي علي مستوي العاطفة .

الحدة الحكائية

فالتردد كان هو الحاضر في هذه المعادلة والتي سوف تؤسس الحدة الحكائية والدرامية في هذا المبني من التوازيٍ حيثٍ شكل هذا التوازي بحدوده الذاتية مرتجعا عينياً يدور حول ذاته، وٍيصور الٍروائي خواص المكان الصحراوي باعتباره وعيا متناوباً في رؤياه لانه يعمل علي حشد هذه التوازيات في بقعة تعاني الضياع الكبير في المكان وفي نطلق الرؤيا واًبعادها بمكونات المستقبل العربي، فالمكان بالنسبة للروائي فقد الطاقة في حالة من المتناظرات التي تعالقت وفق عدة من المستحكمات المحددة وقدرة مطلقة في معني المفارقات التي تعاني منها (الطبقات العمودية والافقية) كل حسب مستواه المتناثر في هذه المدن المالحة،
ويستطرد الروائي الكبير في حكايته الملحية: هي ان تلك الاستطرادات توضح دلالة وقدرة علي الملائمة في رصف هذه الاساليب وتشكيل المواضيع المختلفة واشكالياتها الاجتماعية، فكان الاسلوب الروائي المنجز عند عبد الرحمن منيف يأخذ خواص النقلة المفاجئة في الاسلوب الذي يتحول الي المصب ويتميز بايقاع مكاني حضاري كوني بصبغته الصحراوية التي تقع في طرفي المعادلة الضاربة في العمق العربي ومجساته المتشابكة باتجاه مفارقته مختلفة ورغبة عقيمة لكنها بحاجة الي ولادة جديدة، وبقيت بادية ارض السواد وهي الرواية الاستنتاجية لكٍل ما حصٍل من اشكالية في المكان باعتباره مداراً متكوناً من اشلاء مترامية وبقيت الولادة عسيرة ما لم يصل البالون الصحراوي الي منفذ للانقاذ وبقٍي عالم الروائي عبد الرحمن منيف عالما ينشد الاحساس بمستويات الوعي الفكري والتغلغل والغوٍص الي ادق التفاصيل القبلية عائداً الي منطق الاشياء حيث الابتداء بروايته المشتركة (عالم بلا خرائط) مع الروائي الراحل جبرا ابراهيم جبرا وهو البحث في مداخلات الموضوع الانساني ونتائجه التي تعج بالملابسات لتستشرف المعاني والدلالات في هذا الاشكال المترامي الاطراف وهو الحلقة المفقودة في هذا المعترك المفهومي .

ان المعادل الموضوعي الذي يتمتع به الروائي في المعرفة والاضافة الفاعلة في التصور والرؤية الفكرية باعتبارهما عرض وتفكيك المحكم من الاشياء، لان الواقع الاجتماعي باعتباره عرضاً محكماً وبدلاً خاضعاً لنواميس مجهولة، والنظرة الي هذا الإحكام وتفضيلاته هي من الموضوعات المهمة والخطيرة وتحتاج الي بنية (فكرية تفكيكية) تتعلق بزمن هذا المنحي ومتطلباته التاريخية وتعالقاته المتضادة من الاسهاب والايجاز في خواص التجربة الروائية .وقبل هذا كله يعتمد هذا الإحتكام ملحوظةً متناظرة في خاصية التعبير بين الروائي وخصائص الواقع واستحكاماته المركزية، في هذه التفاصيل يستطيع الروائي ان يقدم قراءة دقيقة وتشكيلات الحياة المختلفة.
ونحن بصدد هذا الاحتكام الذي مارسه الروائي الراحل عبد الرحمن منيف واعتبره منهجاً فكرياً في كتابات لاكثر من ثلاثين عاما،

في الوقت الذي كان فيه معظم الروائيين العرب منشغلين في البحث عن صنعات فنية جديدة، ومنغمسين في تجريب أشكال تساير ما وصلت إليه الرواية عالمياً، كان الروائي العربي عبد الرحمن منيف، يضع نصب عينيه قضية الانسان العربي ومصيره في ظل الأوضاع الجديدة، التي دشنتها الطبقة المتوسطة منذ الخمسينات من القرن الماضي في اكثر من قطر عربي. ان التغيير السياسي والاجتماعي وما ادي اليه من اغتراب الانسان في ظل انظمة استبدادية، وفي ظل فقدان الحرية والعدالة الاجتماعية هو الموضوع الرئيس في روايات منيف.

الأشجار واغتيال مرزوق وشرق المتوسط

أزمة الانسان العربي في الإبداع الروائي

د. شجاع مسلم العاني

وفي معظم روايات الكاتب، يتم التغيير الاجتماعي، والتحول من اقتصاد الاكتفاء الذاتي الذي تتسم به النظم الاقطاعية الي اقتصاد السوق، فيؤدي هذا التغيير الى نشوء انظمة سياسية استبدادية وقهرية، والى التوزيع غير العادل للثروة القومية، فيغترب الانسان وينفصل عن الطبيعة وعن المجتمع وعن ذاته. وعلى حين نجد ان اغتراب شخصيات منيف التي تنتمي الى الطبقات الشعبية المسحوقة، ناجم بالأساس عن تقسيم العمل وما يتطلبه هذا التقسيم من مهارات وتخصص، وما يؤدي اليه من ضمور لامكانات الانسان، نجد ان اغتراب شخصياته من فئة الانتلجلنسيا، لا ينجم عن تقسيم العمل، وما تواجهه رغبات الانسان وغرائزة في ظل الحضارة الحديثة من قمع، بل وينجم اساساً من القمع والارهاب اللذين تمارسهما انظمة استبدادية توليتارية، ترافق عملية التغيير وتنشأ عنها، وتتضح هذه الحقيقة أكثر مما تتضح في رواية الكاتب الأولي، وفي عنوانها الرامز الى هذا الموضوع "الاشجار واغتيال مرزوق". ان اغتيال مرزوق، المناضل الذي سعي من اجل الثورة والتغيير الاجتماعي، يتم حين تقطع اشجار قرية الطيبة وتتحول من اقتصاد زراعي قائم على الاكتفاء الذاتي الى اقتصاد السوق وزراعة القطن بديلاً لأشجار الطيبة. وكما ان عنوان الرواية يقوم على التشريك الذي يحدثه واو العطف والوصل بين الاشجار وعملية الاغتيال، فان الرواية تقوم على قصتين وعلى حبكتين تتجاوران معاً. والقصة الأولي هي قصة الانسان البدائي "الياس نخلة" الذي خسر اشجاره في عملية مقامرة، فتشرد بحثاً عن عمل وعن لقمة العيش، في حين تروي القصة الثانية تجربة الاستاذ الجامعي "عبد السلام منصور" الذي يفصل من الجامعة بسبب عدد من التقارير التي يرفعها الى المسؤولين الجواسيس من طلبته، ليتشرد هو أيضاً بحثاً عن عمل ولينتهي به الامر الى الجنون والى اطلاق الرصاص على صورته في المرآة، في الفندق الذي يعيش فيه. وفي احدي عربات القطار المتجه نحو الحدود يلتقي البائع الجوال للملابس المستعملة "الياس نخلة" الذي يمتلك رؤية اسطورية للواقع، باستاذ التاريخ المفصول من الجامعة، عبد السلام منصور لقد يذكرنا بلقاء "زوربا" بـ "المعلم" المثقف في رواية كازنتزاكي "زوربا". وعلى حين يروي الياس مأساته بطريقة عفوية، يبدو فيها السرد اقرب الى التقرير العفوي البسيط، بكل ما فيه من ملامح القص الشعبي، يستعيد منصور مأساته عن طريق تيار الوعي احياناً، وعن طريق الرواية الموضوعية في احيان أخرى ولقاء الياس بمنصور هو بمثابة لقاء الماضي بالحاضر، والاسطوري بالواقعي. وفي السرد الاستعادي لقصة منصور تتضح العناصر الاجتماعية والسياسية والثقافية الصانعة لمأساته، فمنصور الذي يحمل في حقيبته مقدمة ابن خلدون وملحمة جلجامش وفكر كارل ماركس، وكتاب ليرمنتوف الجيل الخائب" شبيه ببطل ليرفنتوف في "بطل من هذا الزمان". (فبتشورين) الذي انقضت سنوات حياته بدون عمل والقوى الكبيرة التي يحسها مهدورة في نفسه لا تعمل، ذلك لانه في امبراطورية نيقولا الأول؛ في ذلك العهد الذي طغت فيه رجعية مجنونة، لم يبصرأي هدف، ولم ير أية امكانية للنضال، على قول الثوري الكبير (هيرتسن).

ان عبد السلام الذي انتمى الى حزب اشتراكي في مصر منذ صباه، واسهم في الثورة والتغير الاجتماعي، ولكن حين قامت الثورة كان احد ضحاياها بان فصل من عمله، ومرزوقاً "الانسان الذي ذرع الوطن من الشمال الى الجنوب من اجل ان يصبحوا حكاماً.. مرزوق الآن ميت. هل له قبر؟ هل دفنه احد" قتل مرزوق على ايدي الامراء الجدد "لا أحد يدري كيف قتل انه وجد مقتولاً والسلام"!.

وبفعل كل ذلك انتهي منصور الى العدمية وانتهي الى ترديد ابيات ليرفتوف:

"فراح مبتذل وبليد
ولعب اخرق بالألفاظ"

وإذا كان الروائي يلجأ الى الأساليب الحلمية والكابوسية في كشف اغتراب البطل، بحيث يقترب من رواية (المسخ لكافكا) فان روايته والنهايات" شهدت توجهاً نحو الاسطورة وبدا تأثير ماركيز وروايته مئة عام من العزلة واضحاً في الجوانب الفنية من الرواية.

ان من أولى المسلمات في الاسطورة والثقافة البدائية، ان يجمع الانسان بين الطبقية والمجتمع في وحدة كونية واحدة، وتعد الوحدة الكاملة بين الانسان والحيوان والنبات والحجر والحياة والموت، وبين الفرد والجماعة فرضاً أولياً في جميع الطقوس السحرية البدائية. وفي اعمال منيف يحدث التغيير فيحطم وحدة الحياة هذه فيغترب الانسان عن الطبيعة وعن نفسه، وفي رواية "النهايات" تدمر الوحدة بين الانسان والحيوان عندما تضطر "الطيبة" بسبب من الجفاف والجدب الى العودة الى عصر القنص والصيد، التي تعني العودة الى الهوة المملوءة بالدم التي كانت تفصل بين الانسان والحيوان، اذ كان الانسان قاتلاً للحيوان برغم انه يري فيه اسلافه وأقاربه. وعساف بطل الرواية يعبر عن هذا المعني بقوله: "ان الانسان في هذه الايام يمتلك روحاً شريرة لا تمتلكها الذئاب او اية حيوانات أخري" ان عسافاً يعيش حالة من الهيستيريا والانجذاب لانه يعيش تلك المفارقة التي كان يعيشها الانسان البدائي الأول، برغم انه لا يصطاد من الحيوان الا ما كان ضرورياً للبقاء والاستمرار

> كان الروائي يلجأ الى الأساليب الحلمية والكابوسية في كشف اغتراب البطل، بحيث يقترب من رواية (المسخ لكافكا) فان روايته والنهايات" شهدت توجها نحو الاسطورة وبدا تأثير ماركيز وروايته مئة عام من العزلة واضحا في الجوانب الفنية من الرواية

على قيد الحياة. الا ان مأساته هنا شبيهه بمأساة منصور، فهي لا تنفصل عن المشكلة السياسية والاجتماعية، فأصوات اهل الطيبة التي تطالب السلطة بانشاء سده يروي مزارعها ويدرأ الموت عنها، تقابل بالتسويف والمماطلة والكذب من جانب السلطة، في حين تنعم المناطق التي ينتمي اليها الحكام والعسكريون بالماءوالخضرة وتحصل على ما تريد دون عناء.لقد اصر الضيوف القادمون من المدينة الى الطيبة ان يصحبهم عساف- رغم احتجاجه- في رحلة للصيد، ويقود الرحلة بدافع اكرام الضيف. الا ان الطبيعة تنفجر بكل قسوتها لتدفنه برمال الطيبة التي فقدت الماء، وتدفنه هو وكلبه الذي عاش معه ومات دفاعاً عنه عندما حاولت الطيور الجارحة نهشه وهو ميت. وفي شخصية عساف تلتقي عدة شخصيات دينية من حواري المسيح كبطرس وأخيه اندراوس اللذين كانا صيادين، بل ان عسافا يحمل الكثير من ملامح المسيح، ويستحيل موته الى خلاص لقريته اذ تتحول مراسيم دفنه الى تظاهرة شعبية عارمة تطالب الحكام باقامة السد، ويفلح الوفد المفاوض للحكومة. في الحصول على وعد من الحكومة باقامته، في حين يبدأ الاهلون باخراج وتنظيف اسلحتهم وشحنها استعدادا للثورة على السلطة ان هي لم تف بوعدها واستمرت في وعودها الكاذبة. في رواية "شرق المتوسط" ينتقل منيف الى كتابة الرواية متعددة الاصوات، اذ يقوم ساردان اثنان هما رجب واخته انيسة بسرد احداث الرواية بالتناوب. والرواية التي قدم لها المؤلف بمواد من الاعلان العالمي لحقوق الانسان. اختتمها بكلمة على الغلاف الاخير ينبه فيها الي ما يحدث في الأرض الممتدة الى ما لا نهاية من شواطئ البحر المتوسط وحتى الصحراء البعيدة، وكأني بالكاتب يسوق نبوءة بما يحدث لانسان هذه المنطقة اليوم من احتلال وتدمير وقتل، حين يصرح بانه يريد ان تكون روايته "صرخة في جو الصمت.. في الوقت الذي تبدو في الافق غيوم سود كثيرة زاحفة لعل شيئا يحدث قبل ان يدمر الانسان في هذه المنطقة ويصبح مشوها ولا يمكن انقاذه".

ورجب اسماعيل بطل الرواية يسجن ويعذب لاسباب سياسية، مما يؤدي الى موت امه وسقوط صديقته (هدى) التي تتزوج من رجل غيره وهو داخل السجن. وبعد خروجه من السجن يسافر الى فرنسا لغرض العلاج من روماتيزم الدم الذي اصيب فيه وهو في السجن، ثم يسافر الى جنيف لتقديم شكوي الى منظمة الصليب الأحمر ضد جلاديه. الا ان السلطات تساومه وهو خارج البلد ليسجل لها اخبار الطلبة من بلده في فرنسا، وتزج (بحامد) زوج اخته انيسة رهينة في السجن حتى عودته، فيضطر للعودة ويعتقل ثانية، وينتهي به الامر كما انتهي مع مرزوق. لقد وجدوه على عتبة داره وهو في حالة من الانهيار الجسماني، بحيث يفارق الحياة بعد اربعة ايام من خروجه من السجن.

ان (نوري) قائد حملات التعذيب في السجن شبيه بـ "ايوردان" في رواية كونستانتان جيورجيو" الساعة الخامسة والعشرون" فهو يطلق على حملات التعذيب تسمية الحفلات في الوقت الذي يطعم طيوره بيديه ويقف طويلاً ليتأملها وهو فرح بحركتها. وفي شرق المتوسط تعود فكرة "الجيل الخائب" الى الظهور ولكن بشكل رمزي، اذ يخيب امل امرأة فرنسية برجب بعدما تطلب اليه ان يروي شبقها، فيجيئها جوابه: "انا لست رجلا" وهو يصف الأوضاع في بلده بصورة قاتمة ومرعبة حين يقول للمرأة الفرنسية: "الانسان في بلادنا ارخص الاشياء، اعقاب السجائر أغلي منه. آه لو تنظرين في مقر سرداب من آلاف السراديب المنشورة على شاطئ المتوسط... ماذا ترين؟ بقايا بشر ولهاثا وانتظارايائسا. وماذا أيضا؟ وجوه الجلادين الممتلئة عافية وثقة بالنفس".

وفكرة الجيل الخائب تعاود الظهور في قصة الكاتب المجازية "حين تركنا الجسر" وبطل الرواية (زكي نداوي) يقصد منطقة خاصة باصطياد الطيور بهدف اصطياد (ملكة الطيور) ولكنه وبعد جهد يصطاد طائراً يكتشف انه "اقبح بومة تراها العين" ويقوم النداوي عبر حواره مع نفسه ومع الكلب الذي يصحبه بعملية جلد للذات كبيرة جداً. ومن الواضح ان الكاتب يكني بالجسر عن فلسطين، وان احداث الرواية كلها كناية عن هزيمة حزيران المرة عام ١٩٦٧.

في خماسية (مدن الملح) المكان أيضاً افتراضي، وكذلك الزمان، كما هو الأمر في روايات منيف الأولي، لكن من الواضح على احداث الرواية، انها تتناول الاحداث التي جرت في الجزيرة العربية بعد اكتشاف الثروة النفطية وما ادي اليه هذا الاكتشاف من احداث تبدأ بوفود الشركات الغربية للتنقيب عن النفط، والصراع الذي نشأ بين الاهالي وبين هذه الشركات التي رأي فيها اهل المنطقة استعماراً لأرضهم وابار مياههم القليلة.والكاتب يطور ادواته الفنية في الخماسية ليصل الى كتابة الرواية الملحمية، ويكرس استخدامه للاسطورة النابعة من ميثولوجيا شعوب المنطقة ومعتقداتها.

في رواية (شرق المتوسط) يصف رجب اسماعيل نوع الرواية التي يريد كتابتها فيقول لشقيقته انيسة "أريدها ان تكون جديدة بكل شيء، ان يكتبها اكثر من واحد، وفيها أكثر من مستوى، وان تتحدث عن امور مهمة والافضل مزعجة، وأخيرا ان لا يكون لها زمن" وبرغم اننا لا نجد لاحداث رواياته زمنا تاريخيا، فان هذه الازمنة واضحة من السياق ويدركها القارئ، كما يدرك المكان، الافتراضي (الطيبة) على ان الارض العربية كلها. كان الراحل عبد الرحمن منيف، مثال الفنان والأديب الملتزم بقضايا شعبه وامته الانسانية. لقد وضع امام عينيه وتناول في اعماله اكثر المسائل نبلاً في أيامنا هذه، ولعل احداً من الروائيين العرب لم يفلح في الكشف عن فساد الطبقة الحاكمة في الوطن العربي، وجشع هذه الطبقة وانانيتها ولا اخلاقيتها، كما افلح الروائي العربي الكبير عبد الرحمن منيف.

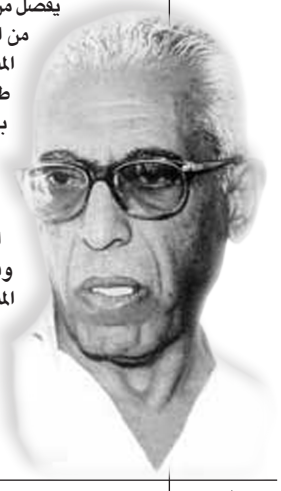

شرق المتوسط.. النكهة والشهادة

عبدالجبار عباس

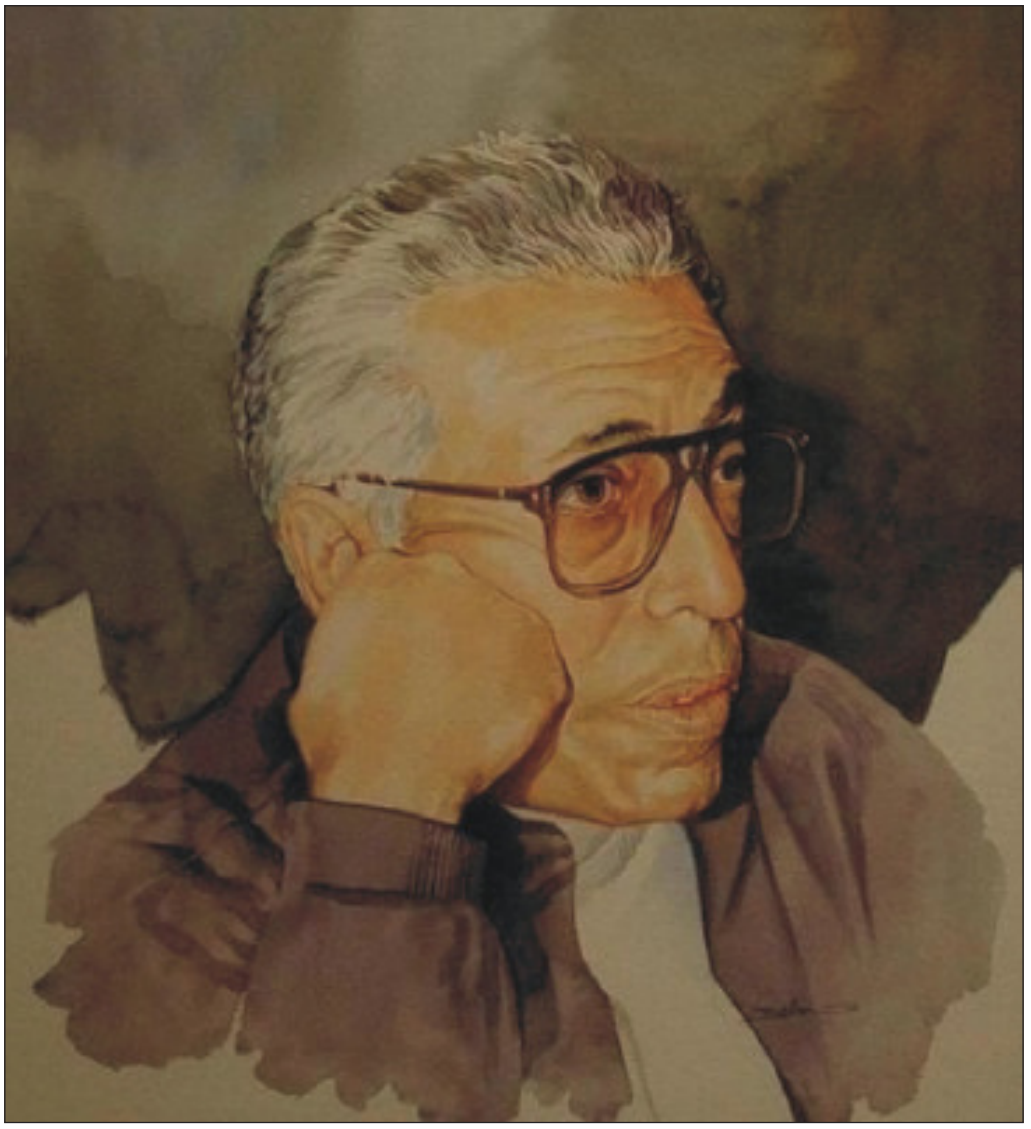

كانت (تلك الرائحة) رواية صنع الله ابراهيم القصيرة، مفتتح مرحلة جديدة في تناول الرواية العربية المعاصرة لازمة المنتمي، اذ لم تعد هذه الازمة خطا هامشيا او اساسيا في لوحة متسعة يتولى الكاتب رصده متعاطفا او مؤرخا.. ولم تعد قضية فكرية يكشف عنها التحليل والحوار لقد تولى المنتمي ذاته كتابة تجربته الخاصة العامة من نقطة ربما كانت نهاية او بدءا جديدا. اغنى المعايشة الشخصية المباشرة، اكتشاف التجربة ومراجتها من الداخل، هو الملمح الاساس في هذه المرحلة التي تنتمي لها رواية عبدالرحمن منيف (شرق المتوسط) بثقة نابعة من امتلاك الكاتب لاطراف موضوعه ومعرفته الدقيقة بتفاصيله المعاشة بحرارة وصدق..

من زاوية القرف والتعب والاستمرار في مسيرة الواجب يستعيد رجب، بطل الرواية، الرغبة، وحتى الذكريات.. اما الافكار التي تعبر رأسه في الليل فانهم يريدونها ان تتحول الى كلمات، الى اسماء ومقابل ذلك يمنحون الانسان الضرب والالم وحنينا موجعا للنهاية والموت لاتقرره الارادة، ولكن الجسد وحده هو الذي يطلبه، لقاد اراد رجب ان يجعل حياة الناس بالكلمة والفكرة اكثر سعادة فكان جزاؤه ان تكون انسانيته مسرحا داميا لشهوة القتل في نفوس قتلة جبناء لاينطفئ عطشهم الحيواني الى التلذذ برؤية الانسان يموت ارادة وروحا وفكرا.. وفي جحيم التجربة الصعبة يرى رجب كل شيء ويشحن ذاكرته باشياء نامت معه وقامت خلال سنين وبكلمات شديدة التوهج، لكنه حين يغادر سرداب الموت جسدا لم يبق بينه وبين الموت سوى انتفاضة غضب او حب او فرح، يكتشف ان (اليد الملوثة، القلب الملوث، لا يستطيع ان يكتب ص ١٧٣) انه يشعر بالانطفاء الكامل، فكل ما مر يتراءى له وكانه كابوس لايرحم (ص ١٧٠) ومع ذلك فقد استطاع عبدالرحمن منيف ان يرمم ارادة انسان يحس انه لم تعد تربطه بالحياة رابطة، فقدم عبر روايته اعترافا وشهادة.. لذا لاينبغي ان نطلب ان تكون (شرق المتوسط) رؤية شاملة مستفيضة وعميقة لاطراف القضية فتمنح جوانب الصورة اهتمامات متكافئة تتضافر على بناء واقع فني اكثر اتساعا وتكاملا، ان ذلك مالم يستهدفه الكاتب ومالا يستطيعه رجب، بطله المنتمي الجريح الهارب باحزانه وذكرياته وغضبه وامراضه الى اوروبا، اذ ليس مطلوبا كتابة قصة، ان الاحداث التي رأيتها بأي طريقة سجلت تكفي لان تكون شهادة ادانة بالموت على هؤلاء القتلة يجب ابعاد كل الكلمات المبتذلة والاتهامات، ولاكتف بما رأته عيناي.. لو تمت اكون قد اديت جزءا من واجب ومن اجل جذورها الى طفولة رجب، ونبرة غنائية حزينة لاتفارق العمل في اي من مراحله. ان نزوع رجب الى الاعتراف وتكريس عمله للشهادة جعلاه في غنى عن الحاجة الملحة الى القواعد وما يتفرع عنها من وجود امكانية او خبرة سابقة ولكن ذلك لم ينته بعمله الى (شكل جديد) او طريقة جديدة في الكتابة كان يطمح اليها، لان تعب الروح والجسد كان قد جز جنح الخيال الروائي التركيبي.. فاضاع على العمل فرصة الانتماء الى الروايات العربية الجددية التي عمدت الى رؤسة التجربة الواجدة بعيون ابطالها، اذ يستعيدون كل من زاينه، ريتها وروايتها، والتي اتخذت في الغالب شكل الرباعية (بميرامار، الظلال في الجانب الاخر، الرجل الذي فقد ظله، رجال في الشمس، السفينة) وضيق من دائرة الواقع الذي اراد رجب ان يجعله بالكلمة اكثر سعادة..

لقد وقف عبدالرحمن منيف وراء رجب وشقيقته انيسة التي لابد ان تناظره ثقافة وقدرة على الرصد والاستبطان ووزع التجربة بينهما مستيعدا الماضي او ممتدا في الحاضر، فاتسم عمله بالبساطة المتجانسة، وضم السياق الهادئ الجذاب (امتدادات كثيرة ومتباينة: الذكرى، الاحاسيس، العلاقات ص ١٦٢)..

وبدلا من (الزوايا المختلفة الضرورية لكي نرى الشيء من جميع جوانبه) توزعت الرؤية بين زاويتين اساسيتين: (رجب) و(انيسة) التي كانت بعد سفر رجب اقدر على تصورها من الداخل والخارج معا..

ان عجز رجب عن ان يكتب كل شيء بعد ان ادرك ان عذاب الكلمة اقسى من ان يتحمله انسان بمفرده، لم ينته به الى (الطريقة المجنونة ان يتكلم عدد من الناس في وقت واحد وبأصوات مختلفة.. دون رابط.. دون نظام- ص ٢٠٣) لكنه انتهى الى اعتراف طويل في صياغة قصصية واقعية مألوفة وشهادة حفلت باستبطان دقيق صادق لتجربة البطل لم تقترب من (الهذيان) الذي لم يبال رجب ان تكون روايته، رغم انها كانت مهيأة وضامئة الى ان تضم اطرافا من هذا الهذيان الذي تمهد له تجربة التعذيب والمعاناة ذاتها، والذي ينسجم مع صورة واقع يتنكر لابسط الوان الحرية، ويدفع المنتمي الى الاعجاب بمظاهر الحرية الدستورية في ظل نظام (ليبرالي) (ص ١٨٧) او مواصلة النضال بطرق هذا النظام فيعتزم الرحيل الى جنيف لتقديم لوحة للصليب الاحمر (١٨٧)..

ان في العمل ممكنات كثيرة لم يقدر لرجب او للمؤلف ان يستعيدها ويستثمرها لمضاعفة ثراء العمل..

ان التكتيل المتدرج بين شخصيات عديدة كان كفيلا بأن يرينا جوانب اخرى مهمة من الصورة باداء روائي اكثر دقة.. لكن رجبا الذي تعجل تقديم شهادته لم يلتفت اليها..

ومع ذلك، فلقد شفت التجربة الذاتية الغنائية عن خلفيتها الممتدة من ساحل المتوسط حتى اعماق الصحراء.. وحسب رجب المناضل فخرا انه قبل غيابه بذر في حامد وانيسة وعادل بذور ثورة عجل الارهاب الغبي في انضاجها، فظل رجب حيا فيهم وحسب المؤلف انه انقذ التجربة قبل احتراقها فقدم عملا روائيا طيبا لم يكن له زمن محدد، لان زمنه هو زمن اية مدينة عربية اغتال فيها الارهاب خيرة ابنائها.. لقد احتفظ دم رجب بنكهة الظل الذي لايستطيع السماح بالنسيان، وشم القارئ عبر فصول (شرق المتوسط) هذه النكهة- الشهادة.

مجلة الف باء ايلول ١٩٧٥

هذا كانت تجربة رجب ورفاقه وعائلته مع الجلادين القتلة مادة طرية نابضة لعمل هو اقرب الوان الرواية الى السيرة وادب الرسائل وادب الاعتراف (علينا ان نتبع البساطة ونعترف، الاعتراف بالكلمات العادية الصغيرة ص ١٦٢) لقد قتلت فنون التعذيب فن الشعر، ذلك السيل من الاحاسيس الداخلية في لحظات هاربة اذ لم يستطع الانسان السيطرة عليها توارت وانتهت،، ولما كانت عائلة رجب ضحية للارهاب بعد ان جاهدته بكل سبيل فان من حجق رجب ان يحلم بكتابة رواية يكتبها افراد العائلة. رواية يكتبها اكثر من واحد، وفيها اكثر من مستوى وان تتحدث عن امور مهمة والافضل مزعجة.. عرفها رجب وامه واخته سنية وزوجها حامد وطفلهما عادل، واسهمت فيها حبيبة رجب هدى ورفاقه وجلادوه وصديقه الدكتور فالي الذي عاش مع وحشية الاحتلال النازي تجربة مشابهة فقد فيها عائلته وكسب حكمة وصلابة النضال.فلئن كانت تجربة رجب موضوع العمل وخطه الاساس، فقد حرص المؤلف على ان تكون معاناة الام التي قتلها الارهاب، ورؤية الاخت المسهمة في صياغة وتوير الحدث المركزي خطين اخرين يتضافران على تشكيل التجربة ومدها بنسغ دافئ من نكهة عائلية اليفة تمتد

> ان التكتيل المتدرج بين شخصيات عديدة كان كفيلا بأن يرينا جوانب اخرى مهمة من الصورة باداء روائي اكتر دقة.. لكن رجبا الذي تعجل تقديم شهادته لم يلتفت اليها..
> ومع ذلك، فلقد شفت التجربة الذاتية الغنائية عن خلفيتها الممتدة من ساحل المتوسط حتى اعماق الصحراء.. وحسب رجب المناضل فخرا انه قبل غيابه بذر في حامد وانيسة وعادل بذور ثورة عجل الارهاب الغبي في انضاجها

هذا الحوار اجري مع الروائي الراحل عام ١٩٩١ اجراه الصحفي العراقي جمعة الحلفي ونشر في مجلة الحرية التي تصدر عن الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين .. منارات تعيد نشر الحوار لاهميته

هكذا تكلم عبد الرحمن منيف:

(مدن الملح): رواية مرحلة اجتماعية وليست موضوعا تاريخيا

الفكر الاشتراكي هو فكر المستقبل

اعتقد ان الديمقراطية هي حجر الاساس في اي نهوض جديد ومالم يتوفر جو ديمقراطي، يتحدد فيه الحق والواجب بالنسبة للمواطن والحاكم، وتتحدد فيه الامور بوضوح ، فان مسألة الحكم الشمولي او الحكم الواحدي، سواء كان حزبا او اتجاها فكريا ستظل هي السائدة

×نبدأ من الادب: وبالتحديد من الجديد بالنسبة لك، فعلى حد علمي هناك رواية جديدة بعنوان (شرق المتوسط مرة اخرى)، ماذا عن هذه الرواية؟ هل يمكن اعتبارها امتدادا لروايتك السابقة (شرق المتوسط؟) ثم اين يمكن وضعها في سياق مسيرتك الروائية خاصة بعد خماسية (مدن الملح)؟.

××رواية (شرق المتوسط مرة اخرى) هي في الواقع، تجسيد للحالة الدائمة التي سادت المنطقة ولاتزال مستمرة، واقصد حالة القمع، ومن الطبيعي عندما يصبح للقمع مؤسسات وحجم من هذا النوع وامتداد يشمل المنطقة كلها، لايصبح فقط شالا للحركة وانما يغيب كل امكانية لمحاولة التقدم، ومواجهة الاعداء الاساسيين، ومن هنا كان هاجسي الدائم هو معالجة هذه القضية، اي قضية القمع، طبعا للقمع مظاهر واشكال متعددة، وهو يكاد يشمل حياتنا العربية من جميع جوانبها، لكن ابرز الرموز المعبرة عنه هو السجن، فالسجن تجسيد لعملية اضطهاد الانسان ومحاولة الغائه، ولذلك عندما كتبت رواية شرق المتوسط اردت ان تكون عبارة عن نوع من الاقتراب من الموضوع والتنبيه له، ومنذ كتابة تلك الرواية وحتى الان، وجد تطور كبير يمكن ان يكون الابرز والاهم في حياتنا المعاصرة من حيث اتساع ظاهرة وحجم القمع والاضطهاد، ولذلك كان لابد من التصدر مرة اخرى لهذه المشكلة، ومحاولة فحصها، من جديد، والتعرف على الكثير من مظاهرها واشكالها واساليبها، وخاصة تعبيرها الابرز السجن، الذي صار يتسع يوما بعد يوم، ويلتهم الكثيرين، بل يمكن القول انه ليس هناك احد بوسعه ان يكون آمنا او ان يظل خارج السجن، واذا حصل فبشكل مؤقت وشكلي..

×وماذا عن السجن الكبير؟.

– نعم.. نعم.. وفوق ذلك هناك السجن الكبير الذي هو من القسوة والشمول، بحيث انه صار يعطل تدريجيا معظم الطاقات، وبالتالي صار يعيق ويؤخر اي عملية تقدم، لذلك اكرر القول هناك كان لابد من التصدي لهذه الظاهرة بتطورها منذ كتابة الرواية الاولى (شرق المتوسط) وكان لابد من تنبيه الناس لها بشكل اكثر تحديدا وتوضيحا مما سبق، لكي يحاولوا عمل شيء ما من اجل وقف هذا الغول والتصدي له.

طبعا من المؤكد ان المشكلة معقدة وواسعة، ولذلك يجب ان يكون الاحساس بها موازيا لطبيعتها واهميتها، خاصة وانه نتيجة لاساليب كثيرة ومتنوعة، استطاع النظام العربي، بشتى اشكاله ومفرداته، ان يحاول شل طاقة المواطن واخافته الى درجة ان هذا المواطن صار لايستطيع ان ينطق او يجهر برأيه في محاربة ظاهرة القمع.

وربما كانت هذه الظاهرة بالذات احد اهم الاسباب التي تفسر الكثير من التخلف والخيبات والهزائم التي لحقت بنا، سواء كمواطنين او كشعوب، وباعتقادي انه مالم يتم التصدي لظاهرة القمع ومالم يتم التوصل الى قيم ديمقراطية في حياتنا العربية يكون فيها القانون هو الحكم والحاكم في العلاقة، وان يسود المجتمع المدني وتسود العقلانية والتعددية، فسوق نبقى ندور في نفس الدائرة، فانا اعتقد ان الديمقراطية هي حجر الاساس في اي نهوض جديد ومالم يتوفر جو ديمقراطي، يتحدد فيه الحق والواجب بالنسبة للمواطن والحاكم، وتتحدد فيه الامور بوضوح ، فان مسألة الحكم الشمولي او الحكم الواحدي، سواء كان حزبا او اتجاها فكريا ستظل هي السائدة وبالتالي لن تكون هناك اطلاقا اية امكانية حتى للتفكير بمواجهة الهجمة الامبريالية الشرسة، التي اصبحت لاتبتغي فقط السيطرة على موارد المنطقة او الهيمنة على الانظمة او فرض نوع من الحلول لمشكلاتنا، وانما تبتغي ايضا الغاء الاخر او اخضاعه بشكل كامل وتحويله الى مجرد اداة وبالتالي استنزافه من حيث الامكانات والطاقات.

×اين يمكن ان نضع (شرق المتوسط مرة اخرى) بالنسبة الى خماسية (مدن الملح).. هل نضعها قبل او بعد؟.

– كما قلت لك سابقا، قضية القمع كانت ولاتزال مستمرة، ويمكن ان تعالج باشكال ومستويات متعددة وفي كل وقت، وهذا ما فعلته في (شرق المتوسط مرة اخرى) اما بالنسبة الى (مدن الملح) فهي عبارة عن موضوع آخر، قد يكون مرتبطا، ولكنه مستقل من جوانب اخرى، اي يمكن ان يكون له علاقة بقضية القمع، من جهة وافتراق عنها، من جهة اخرى.

×اذن يمكن ان ننتقل الان الى (مدن الملح) مادمنا بدأنا بالحديث عنها، فقد وصفت خماسية (مدن الملح) بأنها عمل ملحمي، وهي كذلك حقا، وحسب بعض النقاد تعد الخماسية نقلة نوعية في مسيرة الرواية العربية..

هل يمكن ان تحدثنا عن ظروف كتابة (مدن الملح).. عنها كتجربة فنية وكتجربة تاريخية.. وعن المقاربة بينها كعمل فني ابداعي وبين الواقع التاريخي الذي تناولته او انطوت عليه؟.

– (مدن الملح)، تعالج مشكلة العلاقة بيننا وبين الاخر، بيننا كعرب وبين الغرب منذ بداية هذا القرن، فالاستعمار الغربي كان يحاول، على الدوام، الحصول على المواد الاولية، كما كان يحاول الهيمنة على الاسواق واستغلال الشعوب بشكل او آخر، فالى ماقبل اكتشاف النفط، كانت معظم بلداننا تقريبا، وخاصة المناطق الساحلية، عبارة عن مناطق مرور للمستعمر، فقد كانت للاستعمار البرتغالي، مثلا، ثم الاستعمار البريطاني، مجموعة من المنشآت على السواحل، مهمتها تسهيل وحماية طرق مواصلاته الى الهند، ولكن رغم ذلك، لم يكن لهذه المناطق اهمية كبيرة،انما كانت اهميتها تنبع، الى جانب كونها مناطق عبور، علاقة الحاكم بالمستعمر، اما عندما اكتشف النفط فقد اصبحت المنطقة هدفا واصبحت ارضا مهمة، بل ان اهميتها تبدو، في احيان كثيرة، ابر من الحاكم نفسه بالنسبة للاستعمار، وهكذا بوسعنا ان نسمي القرن الحالي قرن النفط، فان اول امتياز نفطي حصلت عليه بريطانيا في المنطقة، كان في ايران عام ١٩٠١، ثم بدأت الامتيازات تتوالى في البحرين، ثم الكويت، وفي السعودية، وباعتبار ان المستعمر كان موجودا اصلا على السواحل، من خلال منشآته، فقد قام سريعا بتقسيم المنطقة سياسيا وجغرافيا تبعا لما يؤدي الى مكاسب اكبر بالنسبة له، وكنت قد ذكرت مرارا ان العراق مثلا، اي الدولة العراقية المعاصرة، لم تكتسب صيغتها الاخيرة كدولة الا بعد ان تم الاتفاق على اول امتياز نفطي على ارضه، وهكذا اصبح النفط هدفا اساسيا بالنسبة للمستعمر وللقوى الصناعية الغربية، وخاصة بريطانيا وفرنسا،

ومن ثم اميركا، وبمجرد ان بدأ النفط ينتج ويصدر، بدأ يغير معالم المنطقة وعلاقاتها وتشكيلاتها وهذا ادى بدوره الى تغير نوعي كبير في مجتمع المنطقة، حيث تراكم هذا التغيير، باشكال مختلفة وادى الى النتائج التي نراها الان.

×بوسعنا ان نقول ان هذه هي خلفية (مدن الملح) او مادتها التاريخية، ان صحّ التعبير؟.

– نعم.. الرواية، في احد جوانبها، عملية متابعة ومراقبة وايضا قراءة لاطوار تكوّن المجتمع، فانا باعتبار انه قد تهيأت لي خلال فترة طويلة نسبيا، مادة اعتبرتها كافية لمعالجة هذه الموضوعة، وبعد انتظار، ولكن بدون تردد، انطلقت في هذه المعالجة، وتوصلت اخيرا الى الصيغة المتمثلة، الان (بمدن الملح) طبعا موضوع الرواية ليس موضوعا تاريخيا واقعيا كما هو متعارف، وانما هو التاريخ المغيب، اي التاريخ الذي يراد له ان ينسى او ان يهمل، ولذلك كالن لابد لي من العودة الى فترات تاريخية بعيدة نسبيا والى اماكن طبيعية، اي الى المسرح الحقيقي الذي جرت عليه الاحداث ومحاولة قراءة المجتمع، خلال مايقارب نصف القرن: كيف تكون هذا المجتمع، كيف حصلت فيه التغيرات، كيف حاول المستعمر ان يصيغه على قياسه ووفقا لمصالحه، من ناحية البنى الاجتماعية ومن ناحية العلاقات السياسية.. الخ. وايضا هي محاولة لمعرفة التطور الذي حصل داخل المتجتمع نفسه، اي انتقالة من مجتمع بداوة ورعي وتنقل، الى مجتمع استقرار وعلاقات استهلاكية واستيراد اساليب الحياة فهذه كلها، وهي جرت بالطبع لحساب الاخر، اي المستعمر خلال فترة قصيرة نسبيا، قد احدثت هزة كبيرة في المجتمع واحدثت تصدعات في اكثر من منحى من مناحي الحياة، فكما هو معروف ان احدى صفات الصناعة النفطية، وخاصة في البلدان المتخلفة، هي خدمة الاخر، او خدمة الخارج وذلك انها في هذه البلدان ليس جزء من البنية الداخلية للمجتمع، على خلاف الصناعات الاخرى التي تشكل جزءا من بنية النمو والتراكم داخل المجتمع، وهكذا يمكن القول ان الصناعة النفطية عندنا هي عبارة عن صدى لشيء خارجي المهم، وبسبب حجم المسرح الواسع الذي جرت عليه الاحداث، سواء كان من ناحية الفترة الزمنية او المدى الجغرافي، فقد كان لابد من المرور على الكثير من الوقائع والتفاصيل والتطورات التي حصلت، لكن رغم ذلك انا لا اعتبر (مدن الملح) تشكل تاريخا رسميا او تاريخا سياسيا، وانما هي اعادة قراءة للمجتمع في احدى مراحله..

×ولا هي في الوقت نفسه، ابداعا تخيليا خالصا فقط؟

– طبعا.. طبعا.. فالرواية في اغلب الاحيان، لابد ان ترتكز الى نواح واقعية، الى بعض اسس تمكنها من رؤية حقيقية للمجتمع في مرحلة معينة، لكن ايضا يحتاج الامر الى الخيال، اي الى اعادة تشكيل الوقائع بحيث توصل نكهة ورائحة التكوينات الصغيرة لايام سابقة وربما كنت حريصا على موضوع التفاصيل في (مدن الملح) والسبب هو ان هذه التفاصيل تكاد تنتهي او تغيب من الذاكرة لذلك حاولت، بشكل روائي، ان استعيدها بأشكال وصيغ مختلفة لوضعها كعلامات من اجل دراسة واقع المجتمع في مرحلة من المراحل..

×باستثناءات قليلة، يمكن القول ان (مدن الملح) لم تحظ بما يناسب اهميتها على صعيد النقد، وهذه باعتقادي نقيصة على النقد والنقاد كيف تفسر هذا الامر؟ هل تعتقد انه يعود اصلا الى ازمة يعاني منها النقد، او ان الرواية لم تقرأ جيدا بعد، وتحتاج الى وقت اضافي؟.

– بعض الاحيان واقول ذلك بصراحة، اشفق على من يتصدى لرواية (مدن الملح) لانها بحجمها، تحتاج الى نوع من التخطيط، فرواية بأليفن وخمسمئة صفحة، وبموضوع يتناول مجتمعا له ايقاع معين وظروف حياة معينة، من الصعب التعامل معها بسهولة وانا اتصور، كبداية علاقة بيني وبين الاخرين، فان الرسالة قد وصلت من خلال (مدن الملح) لكن، والى ان تتم قراءة الرواية قراءة متمعنة ودقيقة، فان الامر باعتقادي يحتاج الى وقت اضافي، ذلك ان (مدن الملح) ليست رواية سنة او سنتين، انما هي رواية مرحلة كاملة، وانا لا اريد بهذا الكلام المديح، انما اقصد التاريخ الذي يجب بالضرورة التعامل والتعاطي معه بكل دقة وتمعن.

×كيف ترى الافق على هذا الصعيد؟ اي كيف ترى مستقبل الاشتراكية، في ظل عمليات الهدم والتسرع والاثارة، كما تقول وباختصار هل انت متشائم في خصوص المتغيرات في الاتحاد السوفييتي؟

– بودي ان اشير الى كتاب صادق جلال العظم دفاعا عن المادية والتاريخ، فهذا الكتاب يقدم الكثير من الادلة النظرية على حقيقة ان الفكر الاشتراكي ما يزال هو فكر المستقبل، ولذلك اعتقد انه من الضروري ان لا يجري التسليم امام الدعاية الغربية، وان لايتم التراجع نتيجة الهزائم التي حصلت او نتيجة الخوف الذي تحاول فرضه الرأسمالية فاذا كان هناك نوع من السيطرة والقوة في الرأسمالية المعاصرة، فان ذلك متأت من كونها دخلت في عدة مراحل من التجديد وكانت قادرة على الاستجابة لمتطلبات كثيرة، بل انها قدمت ايضا الكثير من التنازلات، ولذلك يجب ان يمتلك طاقة نقدية ورؤيا مستقبلية وقدرة على الاقتحام، وليس التسليم للاخر والتراجع السهل..

×ارى اننا غرقنا في الموضوعات السياسية ولذلك اقترح ان نعود الى الادب لو سمحت.. لدي اسئلة يمكن تسميتها بالاسئلة القديمة، فهي تتناول موضوعات طرحت مرارا، ولكنها لاتزال اشكالية وبحاجة الى اجابات، السؤال الاول يتعلق بأعمالك الروائية، ففي معظم هذه الاعمال، ليس هناك مكان محدد، بل هناك مكان عام هو الوطن العربي والبعض يرى ان في هذا اضعافا لوظيفة العمل الابداعي الاجتماعي او النضالية، ان صح التعبير، فماذا تقول في ذلك..

– قلت مرارا في السابق ان المنطقة العربية، اجمالا، ومن خلال الموضوعات التي عالجتها، تكاد تكون متشابهة، وبعض الاحيان واحدة مثلا (شرق المتوسط) التي لم يحدد لها مكان بالتسمية المباشرة، الا انها محددة تماما جغرافيا ونفسيا، كما ان اعطاء تسمية لمكان بذاته، يبدو وكأنه اعفاء للاخرين او الامكنة الاخرى من صفات القمع والاستبداد الجارية في المكان المحدد، ورغم ذلك فان معظم الذين قرأوا هذه الرواية ومن اقطار مختلفة اعتبروا ان احداثها جرت في الاماكن التي يعيشون فيها، كذلك رواية عالم بلا خرائط التي كتبتها مع الصديق جبرا ابراهيم جبرا، فانها رغم التعميم محددة الى حد كبير، وبالاضافة الى ذلك، انا لا اعتقد ان التحديد الجغرافي الذي يبالغ في ابراز المكان، يعني تحديدا عينيا، بل انه في احيان كثيرة يمكن ان يكون هروبا من المشكلة الاساسية، ومع ذلك فان من حق الفنان والكاتب ان يخلق لنفسه العالم الذي يستطيع من خلاله ان يعكس افكاره ورؤاه المعينة للواقع..

×هناك سؤال آخر من الاسئلة القديمة يتعلق بموضوعة الاصالة والحداثة في الادب والفن، فمنذ اثيرت هذه الموضوعة، وهي موضع التباس، فالبعض يرى في الحداثة تبعية للغرب، والبعض الاخر يرى في الاصالة عودة للاصولية وانكفاء الى الماضي، فيما الاصالة والحداثة وجهان للعملية الابداعية ذلك ان الابداع هو بمثابة الجسر الذي يربط بين قيم التراث وبين مفاهيم وقيم العصر، فكيف تنظر انت لهذه الاشكالية؟

– بالنسبة لموضوع الحداثة والاصالة، مطلوب اولا ان يعطى المرء فكرة اولية، فبعض المصطلحات حملت اكثر من دلالاتها الحقيقية وغلبت عليها، خلال فترات معينة، مواقف ومفاهيم سياسية، وبالتالي اصبحت عليها، خلال فترات معينة، مواقف ومفاهيم سياسية، وبالتالي اصبحت مثقلة بكم خارجي من المفاهيم يحرفها عن معانيها الاصلية، ومع ذلك، لا بد بشكل موجز، من القول بأن الاصالة، اذا كانت جذرا فلا يعني ذلك منع الاغصان عن ان ترتفع وان تكتسب ملامح واشكال تتباين وتختلف عن تلك الجذور، ان الاصالة جذر والاحداثة فروع تنمو وتتكوّن ضمن العصر الذي نعيش فيه ، لكن لايعني ذلك ان نستعير هموم الاخرين، وان نحاول استيراد الاشكال وحدها، ونعتبرها الطريقة الوحيدة للتعامل مع العصر، ذلك ان لكل عصر همومه، وطريقته للتعبير، وبمقدار ما تكون هاك قدرلاة على الامتصاص من الارض تكون هناك امكانية لمواجهة الرياح الغربية، والتعامل معها ضمن نسق يستطيع ان يمدنا بقوة اضافية.

×السؤال الاخير من الاسئلة القديمة يتعلق بالديمقراطية والعمل الابداعي، فالرواية اقرب اشكال الفن الى الحياة الاجتماعية والى الواقع بسبب من كونها تتعامل مع هذا الواقع بشروطه، ولذلك فهي تحتاج الى شرط الديمقراطية، السؤال هو كيف يمكن المواءمة بين شرط الابداع وغياب الديمقراطية؟ وهي تعاني انت من هذا الاشكال؟

– يمكن ان اقول ان الرواية ليس شرطها الديمقراطية انما هدفها الديمقراطية، وهي تحاول ان تعتبر هذا الهدف هاجسا الاول تبحث عنه وتسعى اليه، ولو ان الجو كان ديمقراطيا، لكانت طريقة التناول الروائية مختلفة لكن ضمن هذا الحيز الضيق، فمن غير المسموح للرواية ان تتواصل مع الاخري، ولذلك تجد ان كل روائي هو رقيب على نفسه في الوبت ذاته، وبالتالي فان الحرية المتاحة لاتعطي امكانية كبيرة للتعامل مع المادة وصياغتها روائيا، لكن، مع ذلك، تحاول الرواية ان تستفيد وتوازن بين امور عديدة من اجل ان تصل الى الناس.. ومع ذلك ايضا، نلاحظ ان هناك كما كبيرا من الروايات الممنوعة، والملاحقة، فعلى سبيل المثال، معظم رواياتي ممنوعة في شبه الجزيرة، بل اصبح موضوع رواية (مدن الملح) عبارة عن تهمة تجر الى نتائج معينة في بعض المناطق، اذن، لاشك ان المناخ الديمقراطي عامل مساعد، لكن كثيرا من الروايات كتبت في مناخات غير ديمقراطية، وساهمت في خلق المزيد من الوعي والتحريض لاجل الديمقراطية.

×ولكن هناك من يبالغ في هذا الموضوع، فيقول ان ظروف القمع والاستبداد بالذات هي ظروف مناسبة لانتاج الابداع الجيد، ولكي لاتصبح هذه المقولة ذريعة، اي حتى ننتج ادبا جيدا نحن نحتاج الى القمع، والاستبداد، لذلك نريد رأيك بوضوح اكثر؟.

– (بعد الضحك) من هذه الناحية، انا مخالف لوجهة النظر الرومانسية، ففي وقت سابق، كان الكثير من الشعراء يتمنى الواحد منهم ان يصاب بالسل حتى يعيش حالة من المعاناة تمكنه من كتابة شيء استثنائي، وكان ايضا بعض الكتاب يعتقد ان المناخات الصعبة هي وحدها التي تولد الادب الجديد فهذه باعتقادي، ربما تكون حالات استثنائية، فيمكن ان تكون التجربة وحالات المعاناة الكبيرة تخلق وتحرض على كتابة اعمال مهمة، لكن ايضا المناخات الاخرى يمكن ان تكون افضل من اجل الوصول الى هذه الحالة، اما نحن، فالحمد لله، لدينا كم كبير من القهر والاضطهاد والمشاكل، بحيث لسنا بحاجة للتفتيش عن استبداد اضافي.

×اذن نحن في الواقع بحاجة الى الديمقراطية لكي نرى كيف سنكتب؟

– بالضبط!

×سؤال اخير وصغير.. لمناسبة الحديث عن الشعراء، فكما هو معروف، العديد من كتاب الرواية والقصة كتبوا الشعر، وبالمقابل كتب شعراء القصة والرواية.. هل جربت كتابة الشعر؟.

– ابداً، لم اكتب الشعر.. ولن اتوّرط.

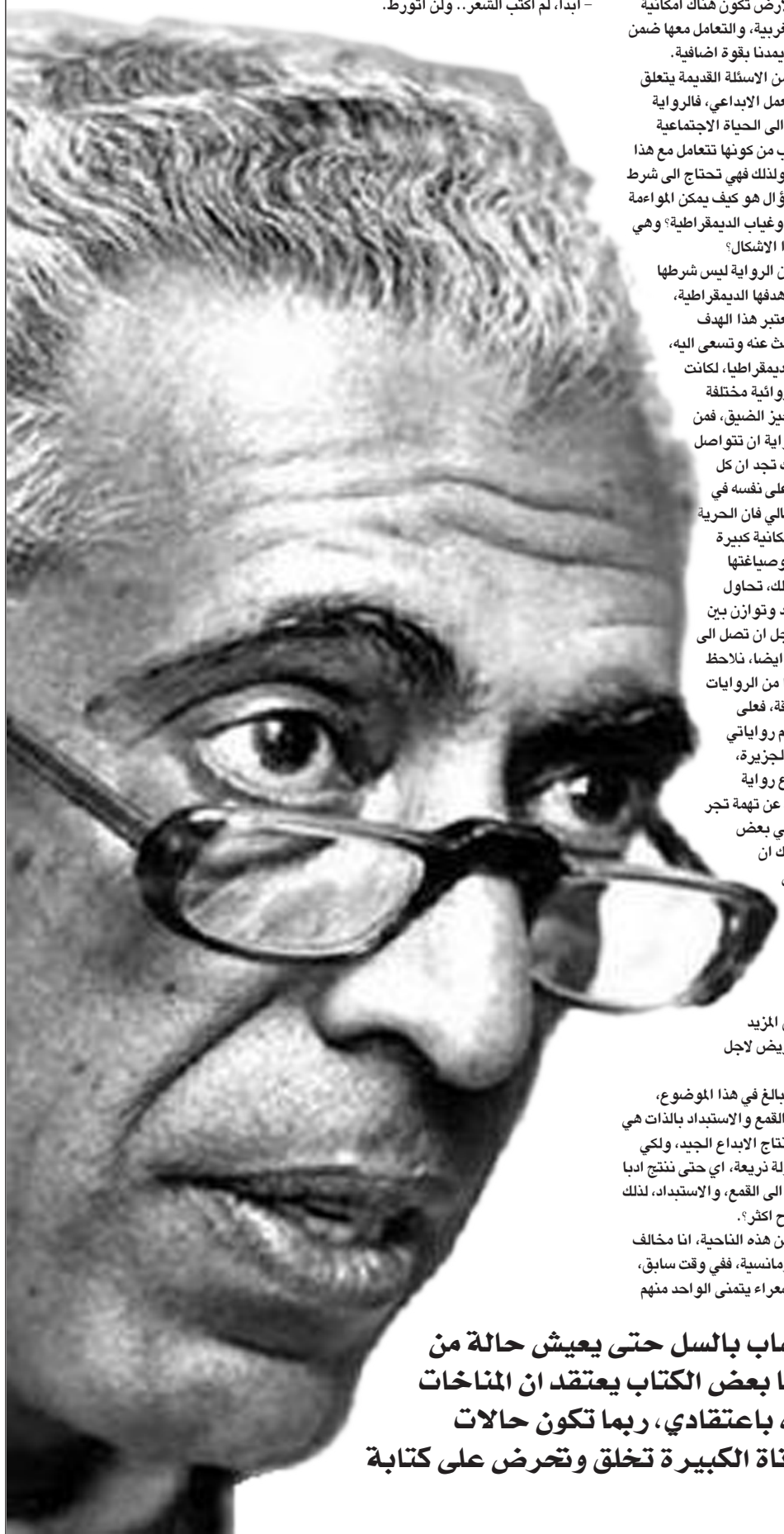

الرواية ليس شرطها الديمقراطية انما هدفها الديمقراطية، وهي تحاول ان تعتبر هذا الهدف هاجسا الاول تبحث عنه وتسعى اليه، ولو ان الجو كان ديمقراطيا

كان الكثير من الشعراء يتمنى الواحد منهم ان يصاب بالسل حتى يعيش حالة من المعاناة تمكنه من كتابة شيء استثنائي، وكان ايضا بعض الكتاب يعتقد ان المناخات الصعبة هي وحدها التي تولد الادب الجديد فهذه باعتقادي، ربما تكون حالات استثنائية، فيمكن ان تكون التجربة وحالات المعاناة الكبيرة تخلق وتحرض على كتابة اعمال مهمة

عبد الرحمن منيف

غـيـاب الـشـاهـد

علي حسن الفواز

بعد سنوات من الموت الذي يشبه المنفى كثيرا، الموت الذي يؤجل مابعده، مازال عبد الرحمن منيف يمارس لعبة الحياة بنوع ما يتركه الاثر الغرائبي، الاثر الذي يباغتنا بمراثي اصواته الطاعنة والعالية، يستفزنا على استعادته مشروعا للقراءة. قراءة ما حولنا من فجائع عربية، فجائع تستغرق المكان والزمان. ليكون اكثر الموتى استعادة لفكرة الحياة واكثرهم رميا للحجر على سطوح القهر الاجتماعي والخراب الداخلي، وربما اجداهم مهارة في التفرج على احزاننا القابلة وهزائمنا المكررة .. علاقة منيف بالموت علاقة حاضرة ومشدودة بقسوة الى مستويات متعددة من مهيمنات القسوة والغياب والاقصاء، هي شواهد في اغلب اعماله الروائية، وهي ثيمات نافرة وضاغطة، لايمكن الفكاك عن سطوتها ومؤثرها. ولهذا فان قراءة خطاب الموت في السيرة (المنيفية)هي مقترح مفتوح لاعادة قراءة فكرة الحياة المتورطة في حالة اشتباك دائم وكشف دائم او ربما في لعبة انتاج اوهام دائمة. واحسب ان هذا الموجّه القرائي، هو الذي يجعلنا امام احتمال قراءته دائما، لانه كاتب متوغل في نصوصنا الخبيئة، في اوجاعنا المكشوفة، وفي صراعاتنا غير المجدية، في خراب احلامنا. فضلا عن ان مقترح قراءته تلك يكتسب اهميته من خلال ما يتيحه من ابراز معطيات واضحة وتحققات تكشف عن العوالم الجوانية في الواقع العربي وما ينوء به من صراعات وجودية ومفهومية، ومن علامات انثربولوجية تهجس بانهيار النموذج الرومانسي الثوري للبطل القومي واليساري التقليدي الذي جعل من شرقه المتوسط (المكان ونمط العيش الصانع للازمات) حاضنا انطولوجيا للرعب، يشيء باشكالات ما يمور به السردي والواقعي. مرت خمس سنوات على رحيل عبد الرحمن منيف، ومازال العقل الثقافي العربي يبحث في مدن الملح وارض السواد عن ذاته، وهويته وتشوهه واسئلته..فهل ان هذه المدن تخصنا حقا؟ وهل نحن مجدبون فيها برعب المكان، وازمة ان يكون هذا المكان صانعا لرعبنا ايضا؟ وهل ان شرقنا المتوسط مازال مكانا مفتوحا على اقصاء دائم لجلود واحلام مسجونيه العاطلين عن البهجة؟ وهل ان حاضرنا بكل ما يحمله من اغترابات وحروب صغيرة وكبيرة، واحزان دامية يشبه ما تركته لنا مدن الشرق المتوسط ومدن الملح والسواد من خواء وهزائم وخيبات ومرائر وخيانات؟ هذه الاسئلة هي جزء من فجيعة عبد الرحمن منيف الذي اكتشف خديعة احلامه الثورية، وخطيئة الايديولوجيا والتاريخ، وربما خرابه الداخلي(نموذج بطله رجب) لذا هو يقترح في كتاباته سردا مضادا، سردا يناظر التاريخ ويناهضه تماما، سردا يحرضه على ارتكاب فكرة موته واغترابه(عن المكان)رغم كل احلامه المحتدمة! موته الذي كشف عن تداع الجسد العربي، والعقل العربي، والمكان العربي. همومه العاتية كشفت هي الاخرى عن مخاوفه من فوبيا السلطة وطوطمها، السلطة القادرة على الرعب والاخصاء والموت. اذ تحول المكان العربي تحت هيمنتها الى سجن كبير، وتحوّل السلطة العربية ذاتها الى سجّان اكبر. يموت عبد الرحمن منيف منفيا عن كل الامكنة التي توزع فيها، يموت غريبا في (مقبرة الغرباء) مثل الغرباء الاخرين الذين شاطروه مطرودية الامكنة(الجواهري، البياتي، مصطفى جمال الدين، هادي العلوي) يموت عبد الرحمن منيف بعد تراجع الاسئلة الى حدودها الاولى وربما الى عمق السواد الذي هبط على ارض السواد ليقول للاحياء الموتى وداعا، فما عاد الزمن صالحا لابطال مهذبين عالقين باصابع السماء، انه زمن الحرائق والمطابخ والنساء اللائي يشبهن المؤامرات والفضائيات الصابرات على بداوتنا.. وسط هذا الزمن ووسط حاجتنا الى فقهاء واصحاب وصايا لايشتمون الرافضة يموت عبد الرحمن منيف، وكأنه بموته هذا يحرضنا على مواجهة اسئلتنا المرعبة والمرعوبة، اسئلة الخراب، اسئلة الوصايا القديمة والامكنة القديمة والمنابر التي انتجت نعاسنا وبلاغتنا البليدة .. كان عبد الرحمن منيف ينسج في فضاء انتماءاته المتعددة هويات ناتئة، تخوّل له ممارسة لعبة(الاحتجاج) على (الثقافي القومي) بكل فخاخه الموهومه بامجاد عاطلة. يستقرئ عبر حفرياته السردية طبائع الموجودات في المكان، تشكلاتها، صراعاتها، حتى يبدو وكانه عالم في(الاناسة) يؤسس اشتغالاته في ضوء صراع كائناته العالقة في اثر لم يعد قائما، اثر يستعير من متحف التاريخ الكثير من صناديقه وحكاياته. اقترح كتابة مضادة لمواجهة ازمة المتحف والصناديق والامكنةعبرقراءة سرديات(السجن، الاغتراب، المدن المالحة، المدن السوداء، الاشجار التي تغتال مرزوقها، التوهم المجوسي) وهذه السرديات بما تحمله من استعارات وشفرات لغوية هي الاقرب الى ما يشبه النص المضاد، النص التطهيري، الذي يضعه امام لعبة اعتراف سردي هائلة..عبد الرحمن منيف في هذا السياق هو اكثر الروائيين العرب كتابة لسردية الاعتراف، الاعتراف الذي يقوم على تقنيات روائية تنحني على تفكيك المكان، والخطاب والوعي، وتلمس ازمة الشخصيات من خلال هذه التقنية، فضلا عن استغراقه في كشف مستويات الزمن السياسي الماكث في الثبات والمقصي عن اية غواية في التحول... ان نمط الكتابة التي استغرقت عبد الرحمن منيف حولته الى خصم شعبي للدولة التقليدية التي ورثت غلاظة الحكام القدامى وقسوة اغترابها مواطنها الحالم، ، وهذا ما جعله لايبحث في التاريخ الذي صنعته الدول ومزاجيات الرواة المهووسين بالايديولوجيات والمخيال الشعبي، بقدر ما يبحث عنه كنوع من السرد المقصود بوعي، والحامل لمعان اشكالية تجسد صراع الانساني الازلي ضد القبح والشر. السلطة هنا هي الشر، والمكان/السجن/ مدينة الملح هو المنفى الحقيقي . الانحياز الى هذا التوصيف جعله قريبا من كتابة المختلف المثير للاسئلة والمسكوت عنه الذي يحتاج دائما الى اصوات عالية، والذي يدعو الى ضرورات الانحناء على توجيه كل القراءات المحرضة على نزع الاغطية عن التاريخ القمعي القديم وعادات القمع الموروثة وانماط السلطات التي افقدت العالم القديم عليائه الاخلاقي وربما افقدته عقلانيته ووظائفه في الحياة وفي الفاعلية التاريخية. وهذا ما تمظهر في روايات (قصة حب مجوسية) و(الاشجار وغتيال مرزوق) و(شرق المتوسط) و(ارض السواد) و(شرق المتوسط مرة اخرى) و(الان ..هنا) وغيرها اذ عمدت هذه الروايات الى كشف ثيمات الحزن الذاتي والخواء السياسي والخراب الداخلي وفضح بنيات السلطات الموهومة، تلك التي انتجت هذا الحزن والخواء، مثلما عبرت على المستوى الفني على قدرة استثنائية في توظيف السردية الواقعية كفن متعال لانتاج مبنى الخطاب والحكاية وتشكيل علامات المكان السردي عبر اعادة معالجة الثيمة التاريخية.. ان استعادة تذكر عبد الرحمن منيف، تعني استعادة فاعلية القراءة التي تضعنا امام مستويات اخرى من كشوفاتها كما يقول ريفاتير، تلك التي نستعيد معها ازمات الامكنة العربية والحيوات العربية(السلطة، المتلصصين، رجال الامن، النساء، المناضلين المخصصين بالاعتراف(توظيف عبدالرحمن منيف للحدث واشتغاله الواعي والمقصود على ثيمات سردية معروفة وفرت له مساحات اضافية لتأمل العالم المحتدم من حوله، العالم المأزوم بصراعاته وتحولاته، العالم الواقف برعب امام غابة من الرموز والشفرات والايديولوجيات، تلك التي اسهمت في صناعة سلطة الازمة، والمكان المأزوم، وربما اسهمت في صياغة اشكال معقدة للمخيال الشعبي الباطني، والتاريخ الاتراضي للاحداث.. ان استذكار موت عبد الرحمن منيف بعد زمن غرائبي من الحزن، هو استذكار لمتن كبير من سردنا الذي لم يدون، سردنا المفتوح على رواية هزائم قابلة، وامكنة لم تتخلص بعد من ملحها وسوادها(الاشارة التشكيلية) وهواجس شرقها الذي مازال يتسع لسجون اخرى ولاغترابات اخرى ولموتى مازالوا يتساءلون عن حياتهم العاطلة. عبد الرحمن منيف واحد من الشهود الذين رحلوا، واحد من الذين اقترحوا سردا اخر لروايات ما زال البعض يرويها لنا ككلام مباح، وكمصاديق ينبغي ان نؤمن انها شهادات الثبوت في الامكنة المباحة لحروب تتكرر، ولهزائم كررايضا.

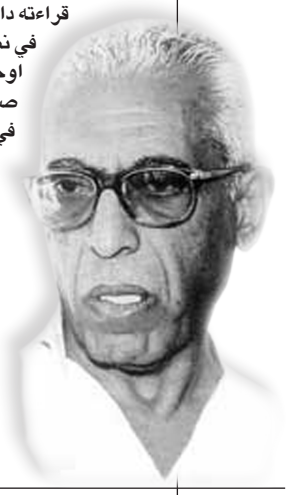

عبد الرحمن منيف الذي اكتشف خديعة احلامه الثورية، وخطيئة الايديولوجيا والتاريخ، وربما خرابه الداخلي(نموذج بطله رجب) لذا هو يقترح في كتاباته سردا مضادا، سردا يناظر التاريخ ويناهضه تماما، سردا يحرضه على ارتكاب فكرة موته واغترابه(عن المكان)رغم كل احلامه المحتدمة! موته الذي كشف عن تداع الجسد العربي، والعقل العربي، والمكان العربي

الطائر العربي عبد الرحمن منيف

د. جاسم العقابي

مثل كثير من الفقراء الحالمين كنت ارسم على وجه السماء خيولا راكضة باستمرار ، كنت افعل هذا عندما تكون السماء شديدة الزرقة وليس فيها غيمة واحدة ، وكانت هذه الخيول شديدة الجموح وشديدة القوة ، وكانت تسافر دائما ، وكنت امتطيها باستمرار واسافر ، لكني في هذا السفر لم اكن ابحث عن شيء ، او اعرف شيئا ، حتى جاء يوم مللت فيه ان اسافر ببلاهة هكذا ، فبدأت ابحث عن اهداف لهذا السفر لكن بحثي كله ضاع ، وانتهى بلا جدوى ، فقررت ان اتعلم القراءة ، وكانت تلك هي البداية لرحلة عذابي الحقيقية على الارض ".هذه الكلمات تكشف عن احساس الاديب العربي عبد الرحمن منيف بقرب الرحيل ، وبها ايضا يمسك بأيدينا لندخل الى حياته التي تمثل عملا ادبيا خالصا والتي تعد منظومة متواصلة من السفر والترحال والغربة والبحث عن الزمن الضائع ، حيث يعد الرحيل اهم ما يميز هذا الاديب العربي الكبير ، صاحب اكبر خماسية روائية عربية ظهرت حتى الان ، وتمت ترجمتها الى لغات العالم المختلفة وانتشرت ابداعاته وتوزعت في بلدان الارض وهي خماسية" مدن الملح " فضلا عن انتاجه الروائي الغزير .

تضاريس جسده كانت كالخريطة العربية ، سمرة بلون ارض السواد حين تفيض الانهر على ضفاف النيل والفرات وقلب مثل الهضاب النابضة تنتظر مطرا لايجيء وروح طليقة مثل الصحراء المفتوحة لا تعترف بحدود الا عندما يتوافر كلأا الروح ومياه الحياة ، هكذا عاش عبد الرحمن منيف غامضا مثل كهوف النفس العربية ساطعا وقاسيا احيانا مثل شمسها ، حينما ظهر في العام ١٩٩٨ على مسرح صغير لدار الاوبرا المصرية ، وهو يتسلم جائزة الرواية العربية . لم يصدق اكثر من شخص انه حقيقي وانه طوال هذه الفترة كان يكتب هاربا من عدسات الضوء ومن الانكشاف الواضح للذات ، كان موجودا وماثلا امام كل العيون التي لم تعد تصدق من كثرة ماخدعت ، يقف بقامته الفارعة واناقته البادية يتسلم جائزة متواضعة القيمة ولكنها كبيرة المعنى ، تعني انه اكبر روائي عربي على قيد الحياة انذاك ، واذا كان نجيب محفوظ قد بقي اسيرا للقاهرة وحواريها ، فأن عبد الرحمن منيف قد جاب كل حواري العواصم العربية واستمد من شوارع المدن العالمية زادا جديدا، وسعت من افق الرؤية لديه كما زادت من مساحة" القماشة " التي تجري عليها احداث الرواية العربية .

كان هو المواطن العربي الاشمل – على حد تعبير الناقد المصري فاروق عبد القادر – فهو مولود لأب سعودي وأم عراقية وتزوج امرأة سورية ، واقام في دمشق ثم بيروت وتعلم في بغداد وعمان وتمشى في ازقة الخليج وعاش ازمات البترول العربية دارسا ومختصا في مجال الاقتصاد ، ثم عاش ازمة الابداع العربي عندما كان يريد ان يقول كلمته ، فيجد سيف المصادرة في انتظاره .

ولد عام ١٩٣٣ في عمان وانهى دراسته الثانوية بها ثم انتقل منها الى بغداد عام ١٩٥٣ ولكنه لم يبق فيها الا عامين فقط ، فقد اعلن احتجاجه هو وعدد من الطلاب العرب والعراقيين على توقيع قيام" حلف بغداد " وتم طردهم من العراق فما كان منه الا ان اكمل دراسته في القاهرة .

في ١٩٥٨ غادر الوطن العربي مؤقتا الى يوغسلافيا حيث حصل على درجةالدكتوراه في العلوم الاقتصادية في اختصاص اقتصاديات النفط ليعمل في مجال النفط في سوريا .

دخل منيف عالم الرواية مثل مفاجأة غير متوقعة ، ففي الاربعين من عمره صدرت له رواية" الاشجار واغتيال مرزوق " عام ١٩٧٣ حيث قدمت شهادة على الادب الواقعي الملتزم وظن الجميع بانها نزوة لرجل اقتصادي قد مل من لغة الارقام ، ولكن اغتيال الاشجار كانت بداية طريقه الطويل لاكتشاف كل انواع الاغتيالات التي حدثت في الواقع العربي . كان رومانسيا وعاطفيا في رواية" قصة حب مجوسية " عام ١٩٧٤ ، وكان ناقما على السجون العربية وما يحدث فيها من انتهاكات في رواية

" شرق المتوسط " ١٩٧٥ وكان عاشقا محبا للصحراء وسحرها الغامض المليء بالخوف في" النهايات " ١٩٧٧ . ودخل في تجربة غريبة مع جبرا ابراهيم جبرا في" عالم بلا خرائط " عام ١٩٨٢ .

حيث كان كل واحد منهما يكتب فصلا في الرواية ، وقد كانت هذه التجربة اعادة حية للتجربة التي قام بها طه حسين وتوفيق الحكيم حيث كتبا معا" القصر المسحور " ثم كتب خماسيته المشهورة" مدن الملح " التي بدأها بكتاب" التيه " ١٩٨٤ ثم" الاخدود " ١٩٨٥ و" تقاسيم الليل والنهار " ١٩٨٩ و" المنبت " ١٩٨٩ واخيرا

" بداية الظلمات " ١٩٨٩ .

يقول عبد الرحمن منيف في حديث صحفي لاحدى الصحف الالمانية عن سبب تسمية ملحمته" مدن الملح " انها تعني المدن التي نشأت في برهة من الزمن بشكل غير طبيعي واستثنائي ، واصبحت مثل بالونات يمكن ان تنفجر ، ان تنتهي بمجرد ان يلمسها شيء حاد ، الشيء ذاته ينطبق على الملح فبالرغم انه ضروري للحياة والانسان والطبيعة وكل المخلوقات فأن اية زيادة في كميته تصبح الحياة غير قابلة للاستمرار .

ولم تتوقف اعمال عبد الرحمن منيف عند مدن الملح بل كتب وغاص في ملحمة اخرى مكونة من ثلاثة اجزاء هي" ارض السواد " عن مرحلة الحكم العثماني للعراق .

اما اخر ماكتبه والذي صدر قبل ايام قليلة من وفاته فكان كتابا عن تاريخ العراق" العراق ...هوامش من تاريخ المقاومة " ٢٠٠٤ وحصل منيف عام ١٩٨٩ على جائزة سلطان العويس الثقافية للرواية .

يقول عنه الناقد السعودي عبد الله الخزامي: " لقد جعل منيف من نصه الروائي شهادات من مرحلة من التغير الشديد سياسيا واجتماعيا ولم يجد حرجا في المزج بين السياسي والفني ، وربما آثر السياسة في كثير من الاحيان مما جعل له خصوما عديدين ، ولكنه مع هذا ظل ضميرا جمعيا واديبا وفير العطاء "

ويقول عنه الروائي المصري جمال الغيطاني" حافظ منيف على نقاء المثقف العربي في زمن شهدنا فيه الاعاجيب وحافظ على ثوابت اساسية وقناعات لم تتبدل ، ليس من منطق الجمود ولكن من منطلق تعبيرها عن موقف انساني وقومي عميق"

واكد الناقد السوري نبيل سليمان" ان هدف المشروع الروائي عند منيف هو ان تكون الكتابة شهادة على القتلة وزمنهم ولكن بالطريقة المجنونة " . وتقول عنه زوجته سعاد القوادري التي تزوجها عام ١٩٦٨ وعاشا معا ٣٦ عاما كاملة .. "كان حبنا مختلفا ، عشنا ورشة عمل منذ لقائنا حتى الان ، وانا مرتاحة لأنه مارس كل الاشياء التي يحبها ، وقد زاد من الفتنا اننا كنا متواضعين في شروط وطريقة حياتنا " في يوم السبت ٢٤-١-٢٠٠٤ بعد ان اتم عامه السبعين في منزله بدمشق بعد معاناة طويلة مع مرض قصور الكلى المزمن وبعد ان اسس وعيا عربيا وروائيا .. هدأت رحلاته وحط الرحال وآنى له ان يستريح من حياة أتعبته حاملا معه الحلم العربي ... رحل هذا الطائر الفينيقي العربي النبيل عن عالمنا ...

كان راهبا وثائرا ومبدعا .. رحم الله منيف ... وابقى كلماته .

> سبب تسمية ملحمته" مدن الملح " انها تعني المدن التي نشأت في برهة من الزمن بشكل غير طبيعي واستثنائي ، واصبحت مثل بالونات يمكن ان تنفجر ، ان تنتهي بمجرد ان يلمسها شيء حاد ، الشيء ذاته ينطبق على الملح فبالرغم انه ضروري للحياة والانسان والطبيعة وكل المخلوقات

عبد الرحمن منيف وحديث خاطف عن الديمقراطية

المقموعون يتحررون في الرواية العربية

يمكن اعتبار الرواية أكثر الفنون التعبيرية مقاربة للواقع. ليس من رواية عربية سوريالية حتى الآن. ولم نصادف أثناء قراءتنا الروائية (في نمادجها المعروفة على الأقل) نصا روائيا يزيحنا من نصه (لغته ومراميه) ليلقي بنا في متاهة الغموض بنوعيه: المقصود أوالهذياني، كما هي الحال في الشعر والرسم مثلا.
الرواية العربية هي أكثر طرائقنا، كتابا وقراء، للكشف، أو محاولة الكشف، عما يعنينا بشأن أنفسنا والعالم، ومن هنا تنشأ الذريعة لطرح سؤال الرواية وعلاقتها بالديموقراطية، على أساس أن الديمقراطية أحد أحلام المجتمع العربي، وأقساها وأكثرها قابلية على الإفساد الفكري والتاريخي، منذ طرحت في سوق التداول السياسي.

عواد ناصر

ألا ترون حجم الثقل المادي الذي يضغط بشكل فاقع على أصابع الروائيين وأوراقهم واشتغالاتهم ممثلا بالسياسة عموما وبمعضلة الديمقراطية خصوصا؟ من السهل أن يطرح السياسيون آراءهم ومشاريعهم بشأن الديموقراطية، فهي عبارة عابرة في أفواه السياسيين، عبر العالم، كاللبان، ضرورية لبعض الوقت سرعان ما يعافها الفك بعد أن تفقد طعمها و"مرحلتها". هكذا تكون السياسة مدخلا للفن كظاهرة عربية، بامتياز، أكثر من كونها "حرفة" السياسي.
ابتلينا، من دون سائر الناس، بظل السياسي على أوراقنا وخيالنا. نعم، ثمة روايات عالمية كبيرة كان فيها السياسي يعترض حوارات الشخصيات الروائية ويسبغ على صالات الرقص وشرفات المحبين حلكة ليست بالرومانسية: "الساعة الخامسة والعشرون" لوكونستانتين جورجيو، "حفلة التيس" لماريا فارغاس يوسا، "البطء" لميلان كونديرا، "خريف البطريارك" لماركيز، "السيد الرئيس" لأستورياس واللائحة تطول كثيرا عالميا لكنها تتقاصر عربيا، للأسف، ومن هنا منشأ سؤالنا حول ديموقراطية الرواية العربية.

الرواية هي التاريخ الفني المكتوب للمجتمع

لا أكتمكم لوخيرت بين رواية عربية أقرأها وأخري غربية فسأختار الثانية. إنه أمر يتعلق بمساحة الحرية الداخلية التي يتمتع بها الروائي الغربي.
يتلخص مسوغ فكرة هذا المقال على ضوء أن الرواية هي التاريخ الفني المكتوب للمجتمع.
لا معني هنا، كما أزعم، لمقولة "الشعر ديوان العرب" لأنها مقولة دواوينية لم تعد صالحة لعصر الحروب والقمع والمنفي الذي يعتبره الناقد البريطاني جون برغر أنه أبرز ما يميز القرن العشرين. وأضيف: القرن الواحد والعشرين أيضا بلا تردد.
وبالمناسبة اختار هذا الناقد الجنوب الفرنسي مكانا للإقامة مهاجرا (منفيا؟) موقفا اعتراضيا على ما يجري في وطنه من استلابات وخروقات لأعرق ديمقراطية في العالم الحديث.
إذا كانت الرواية، كما اقترحت، هي التاريخ الفني للمجتمع فإن هذا يعني أن الروائيين هم كتبة التاريخ الفعلي بمواجهة تاريخ المؤسسة الرسمية في مختلف توصيفاتها: الأكاديمية والمؤسساتية القوية التي لا تأبه بالضعفاء وهم هنا الناس العاديون. تاريخ القوة (السلطة القمعية) ولا ريب.

الديمقراطية في الرواية

إن رواية السعودي، نصف العراقي، عبد الرحمن منيف "شرق المتوسط" ما كانت بحثا روائيا مباشرا بشأن الديموقراطية قدر ما كانت شهادة روائية عن القمع وإهانة الفرد المتهم بتهديد مشروع السلطة العربية. لا بأس ففي الشعر، مثلا، كانت أنشودة السياب للمطر صيحة شعرية ضد الجفاف. من هنا أري أن مثال منيف في طرحه لموضوعة السجن وتحطيم الإنسان، هو الوجه الآخر لسؤال الديمقراطية في الرواية.
إنه سؤال لا يتعلق بعبدالرحمن منيف شخصيا أو روائيا إنما ورد عرضا وفق إجراءات المقال هذا، فالرجل كان أمينا لفكرته الروائية وكل ما يتعلق بها عقائديا، وما مقالاته وكتاباته اللاحقة سوي توكيد لعقائديته، وهو حر طبعا، في ما يراه، لكنني أوردته مثالا على

الروائي الذي تصدي للاستبداد بصراحة متناهية الى الدرجة التي طبعت فيها روايته هذه تحديدا عشرات المرات وفي دور نشر متنوعة بعضها تابع للمؤسسة العربية الرسمية (وزارات إعلام أو دور نشر تؤدي وظيفة هذه الوزارات نفسها(!) وكأنها تقول نحن "ديموقراطيون" ولسنا المقصودين. الديموقراطية سلوك وليس لباناً يعلك. الفاشية العربية، أيضا، لا تخص حزبا من دون سواه. إنها نوع إخلاقي وسلوكي يمكن أن يتمظهر في أشد الأحزاب معاداة للفاشية.

في سهرة شامية، في منزلي/ مساكن برزة، سألت عبدالرحمن منيف سؤالا يتصل بفكرة هذا المقال بشأن روايته تلك، وبأريحية المبدع وتواضعه أجاب ما معناه: الكتابة عن الاستبداد أسهل من الكتابة عن الديموقراطية. نحن أمة تطلق صرخة "آخ" ضد مستبديها كردة فعل على ألم فسلجي، إذا جاز التعبير، لكننا لم نجد "المجال الكافي" لسؤال المستبد عما يفعل. شخصيا سأفكر بالأمر، روائياً.

"المجال الكافي" من يتيحه؟ من يصنعه؟ قدر ما يتعلق الأمر بموضوعة هذا المقال يتحمل الروائيون العرب مسؤولية الصمت إزاء ثقافة الديموقراطية، ثقافيا وإبداعياً، باعتبارهم أكثر الفنانيين المؤهلين لتأرخة المجتمع فنياً.

وإذ تحتل الرواية العربية، اليوم، ما يجعلها المنافس العنيد لدواوينية الشعر العربي فإن المبحث يتقدم أكثر في مسعاه باتجاه ديموقرطية الرواية.

كتب مؤلف "الساعة الخامسة والعشرون" على رغم يقينه المسيحي، روايته ليتصدي لأعتى سلطتين قمعيتين شموليتين: الاشتراكية، بطبعتها السوفيتية، والنازية الألمانية.

وكتب يوسا روايته فاضحا حكومة الجنرال الدكتور رافائيل تروخيو مولينا "الذي لا يتعرق أبدا"! أما كونديرا فتكلف بمهمة تفكيك النظام الشمولي بدءا من أصغر صور النفاق والبيرقراطية في المجتمع وصولا الى الدعاية الرسمية للدولة: "التي بدأت بتوبيخ النخبة والنخبويين في آن، وكانت بهذه الكلمات لا تقصد رؤساء الشركات أو الرياضيين المشهورين أو السياسيين، بل النخبة الثقافية حصرا، أي الفلاسفة والكتاب والأساتذة والمؤرخين والعاملين في السينما والمسرح". من أولويات الشرط الروائي، كما تعلمناه كقراء، هو ديموقراطية المؤلف عندما يتيح الفرصة "المجال الكافي" للشخصيات كي تبرر أفعالها وخياراتها، بما فيها أشدها إجراماً (دستويفسكي في "الجريمة والعقاب").

إن الدراما الروائية تنشأ، كما في المسرح، من صراع إرادتين رئيستين، من دون إجحاف بحق الشخصيات الثانوية في التعبير عن وجودها ومبررات سلوكها وخياراتها المشروعة وغير المشروعة نسبياً. إنها ديمقراطية الإدارة الروائية للفاعلين في النص. لدى الروائي جملة من الأفكار التي تنتشر سردا وحواراً عبر نصه. "القارئ العادي" حسب تعبير فرجينيا وولف، لن يغفر للروائي أي محاولة غش تستغفل وعيه بل عاطفته الشخصية عندما ينحاز أو يتعاطف مع هذه الشخصية حتى لو كانت بالضد من إرادة المؤلف. عراقيا، لابد من ذكر (المبعدون) لعبد الخالق الركابي، بداية السبعينات، التي أشارة بحرارة الى مبعدي بدرة وجصان من السياسيين، واعتبرت وقتها رواية جريئة توفرت على فنية مشوّقة وهي (تؤرخ) لتجربة فريدة في التاريخ السياسي للعراق، على أن (القلعة الخامسة) لفاضل العزاوي اتخذت من سلطة (منظمة السجناء) على السجين الفرد داخل السجن محورها الأساس، بينما في (الرجع البعيد) وهي

> **إن رواية السعودي، نصف العراقي، عبد الرحمن منيف "شرق المتوسط" ما كانت بحثا روائيا مباشرا بشأن الديموقراطية قدر ما كانت شهادة روائية عن القمع وإهانة الفرد المتهم بتهديد مشروع السلطة العربية. لا بأس ففي الشعر، مثلا، كانت أنشودة السياب للمطر صيحة شعرية ضد الجفاف. من هنا أري أن مثال منيف في طرحه لموضوعة السجن وتحطيم الإنسان، هو الوجه الآخر لسؤال الديمقراطية في الرواية**

برأيي المتواضع أفضل ماكتب فؤاد التكرلي، نعثر على ترميز خفي لعنصر سلطوي يصعد سلم السلطة بخطي مدروسة ليتبوأ أحد مراكزها العليا، والخلاصة أن ما ذكرت من الروائيين العرب والعراقيين مازالوا يرسمون ذلك المشهد الناقص. مرة ثانية أقول إن ما أغفلت من الروائيين لا يعني عدم جدارتهم بالتصدي للبنية الفوقية للقمع، إذا صحت التسمية، بل أن ما ذكرت هو مجرد أمثلة تسعف ذاكرة الكتابة في هذا المقال، وأي أغفال هو ضيق الذاكرة بمحتوياتها الضرورية للبحث وأعتذر عن أي نقص. إن العمل الروائي الذي ينطوي على هذا القدر من الحس بالعدالة (قبل أن يكون وعياً ناجزاً) لا يمكن أن يبقي حبيس النص من دون أن يخرج على الملأ شاهرا سيفه. ديموقراطية الروائي في إدارة شخصياته وإتاحة "المجال الكافي" للتعبير عن أو لتبرير الأفعال والإيماءات وكل ما يمت بصلة لتحقق الشخصية هي سمت الكاتب الذي لا يقتصر على جبهة الكتابة على حساب جبهة الحياة. لا فصل بين الإثنين طالما يرتبط الأمر برسالة اجتماعية هي هدف أي نص مكتوب حتى لو كان إعلاناً عن علبة دخان أو تبرع لجمعية خيرية. نعم، ثمة روايات عربية عدة تناولت تجربة السجن، تحديدا، باعتبارها أكثر تمثيلا لشهادات ضد القمع. لكن المشهد الروائي العربي ناقص. كيف؟

تصدى روائيو العالم لمعضلة الحرية والديموقراطية من فوق، اي بالسلطة القامعة. أما روائيونا فقاربوها من تحت. من الضحية وحاولوا أن يساعدوه ويأخذوا بيده ويربتوا كتفه. إن الكثير من الروائيين العرب ينطلقون من أصولياتهم الفكرية والأيديولوجية لتوصيف أو إدانة أو تحريض أو فضح. والهدف هو الاستبداد الغابر أو الماثل، لكنهم لم يقفوا بين حلبتي صراع أو أكثر بالمسافة ذاتها التي تتيح لهم رؤية الاحتراب من مسافة كافية كحكماء عدول. إنهم أخرجوا الضحية من ظلمة السجن ليسيروا به في الظلمة أيضا بعيدا عن أعين السلطة. إنهم مثل أبطالهم المقهورين، خائفون ومنتهكون وغير قادرين على تجاوز خطوط السلطة الحمر. حتى رواية مثل "وليمة لأعشاب البحر" التي تلقفناها لأنها تشبهنا تناولت تجربة المناضل السياسي في بلدين بعيدين: العراق والجزائر. أي ليس في سورية. و "شرق المتوسط" كتبها روائي هو عضو قيادة قطرية في الحزب الحاكم ومستشاره النفطي. هذا ما جعلني اقول بـ "المشهد الناقص". لم أنس، طبعا، تلك الرواية المهمة التي كتبها المصري صنع الله ابراهيم، أعني: "تلك الرائحة" التي رمت بدقة فائقة تفاصيل القمع العربي الرسمي من خلال شخصية السجين السياسي. إنني أشم "تلك الرائحة" اليوم رغم مرور ثلاثين عاما على قراءتها (نشرت أواسط الستينات) لكنني لا أتذكر ما إذا كانت تصدت للبنية السياسية القمعية للدولة القائمة، وقد تعرضت الرواية للمنع والحصار رغم حرص كاتبها على تحاشي الاقتراب من "الخط الأحمر".

من هنا يتكرر سؤال هذه الملحوظات التي تطمح أن تطلق حوارا بشأن الهاجس الديموقراطي في الرواية العربية.

أين هو الروائي العربي الذي يتبنى معضلة الديموقرطية كديموقراطي وليس طرفا في صراع أيديولوجي متخندق ضد روائي آخر يتمترس في خندق أيديولوجي مقابل. هل هناك حاجة الى القول بأن الرواية العربية التي تصدت لموضوعة القمع العربي شجاعة في التضامن مع المجلودين لكنها تفتقر للشجاعة في فضح الجلاد. الديموقراطية ليست أيديولوجيا. قيل إن: الديموقراطية كالطقس الجميل متاحة للجميع.

عبدالرحمن منيف.. خرائط العالم

نوري الشمري

ولد عبدالرحمن منيف في عمان. الاردن في العام ١٩٣٣م. والده من نجد في السعودية وامه عراقية قضى معظم طفولته وصباه واول شبابه في عمان.

وصل الى بغداد اواخر صيف ١٩٥٢م وكانت هذه الانتفاضة تعبيرا عن رفض الصيغة القائمة انذاك كما كانت تجربة بمعنى مزدوج للسلطة وللقوى السياسية الشعبية من اجل قياس الاحتمالات قبل الوصول الى حلف بغداد ثم الى ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨م وكان عبد الرحمن منيف من سنة ١٩٥٢م الى ١٩٦٥م مستغرقا تماما في السياسة والعمل السياسي ولكنه رأى ان هذا كله خدعة كبيرة حيث كان الواحد منا حسب رأيه يتصور المؤسسة السياسية يمكن ان تكون امينة في قناعاتها ومقولاتها السياسية ومن خلال التجربة رأينا ان هناك فارقا كبيرا بين الافكار التي كنا نؤمن بها وندعو اليها والممارسة الفعلية في الواقع وما امكن الوصول الى نوع من الصيغة او التعايش ضمن تلك المؤسسة وهناك حاجز بيننا وبين الاستمرار وبدأ البحث عن اشكال جديدة لمواجهة العالم ومحاولة تغييره سواء اكان ذلك في العمل السياسي ام في العمل الفني ومن هنا كان الاقتراب من اداة اخرى من ادوات التعبير والتغيير وهي الرواية.

درس عبدالرحمن منيف في عمان وانتسب الى كلية الحقوق في بغداد وبعد توقيع حلف بغداد طرد من العراق. واصل الدراسة في جامعة القاهرة. تخصص في اقتصاديات النفط وعمل في (الشركة السورية للنفط) بدمشق ثم عمل في الصحافة في بيروت عدة سنوات. ثم غادر العراق.. وهام في بلدان مختلفة منها فرنسا واقام في ايام وسنوات حياته الاخيرة في دمشق الى ان وافاه الأجل المحتوم في دمشق/ سوريا بتاريخ ٢٠٠٤/١/٢٤.

فليس عجيبا ان يلتقي في روايات عبدالرحمن منيف حشد من الشخصيات جاءت اليها من مختلف انحاء العالم العربي وان تعيش معاناة الناس العرب عموما وقضاياهم وآمالهم واحلامهم ونضالاتهم وهزائمهم عبر سائر روايات عبدالرحمن منيف منذ (الاشجار واغتيال مرزوق) ١٩٧٣ (سباقات المسافات الطويلة) ١٩٧٤ (قصة حب مجوسية) ١٩٧٤ (شرق المتوسط) ١٩٧٥ (حين تركنا الجسر) ١٩٧٦ (النهايات) ١٩٧٧ (عالم بلا خرائط) بالاشتراك مع جبرا ابراهيم جبرا ١٩٨٢ وخماسية مدن الملح (التيه) ١٩٨٤ (الاخدود) ١٩٨٥ (تقاسيم الليل والنهار) ١٩٨٩ (المنبت) ١٩٨٩ (بادية الظلمات) ١٩٨٩ ورواية (الآن. هنا) (شرق المتوسط مرة اخرى) ١٩٩١ (سيرة مدينة عمان في الاربعينيات)١٩٩٤ (عروة الزمان الباهي) ١٩٩٦ في (الثقافة والسياسة) ١٩٩٨ وعبدالرحمن منيف (الكاتب والمنفى) مجموعة من الدراسات والمحاضرات والمقالات والحوارات التي تناولت سيرة عبدالرحمن منيف وكتاب (لوعة الغياب) ١٩٩٩ وثلاثية (ارض السواد) ١٩٩٩ (ذاكرة للمستقبل) ٢٠٠١ (الديمقراطية اولا الديمقراطية دائما) ٢٠٠١ (رحلة ضوء) العراق/ هوامش من المقاومة والتاريخ٢٠٠٣ دراسة عن الاعمال التشكيلية للرسام (مروان قصاب باشي) مصمم كتب وروايات وصورة عبدالرحمن منيف على غلاف اغلب رواياته علما ان عبدالرحمن منيف لديه رسومات في كتاب (سيرة مدينة عمان في الاربعينيات).

اعرف ان عشرات الوف القراء العرب قرأوا ويقرأون في روايات عبد الرحمن منيف ونجيب محفوظ وحنا مينة وغيرهم.. ولكني لست متأكدا من ان عدد السياسيين والقادة الحزبيين وحتى المنظرين منهم الذين يقرأون احيانا روايات عربية يتجاوز او ينقص عدد اصابع اليدين! ولعلي اقول (بصوت عال) ان حاجة القادة الحزبيين والمنظرين الى نشدان المعرفة العميقة والجميلة عبر الروايات العربية المتميزة لا تقل ابدا عن حاجتهم الى المعرفة العلمية بالبنية الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية لمجتمعاتنا وباشكال الصراع الطبقي السياسي في هذه المجتمعات.

هذا الصراع الذي يتجلى في الاعمال الروائية الابداعية باعمق واصدق واوضح مما يتجلى في الكثير الكثير من الدراسات الاقتصادية.

فلا بأس لا بأس ان يتعرف هؤلاء السياسيون والمنظرون على ناسنا وشعبنا وحقائق الصراعات الاجتماعية واسبابها العميقة عبر الروايات ايضا.. ومن المفيد لهم ولنا ان يكتشفوا عبرها احتمالات جديدة لافاق لم يعرفوها قبلا. فعبد الرحمن منيف عمل في حقل النشاط السياسي اليومي والحزبي زمنا طويلا.. فاصيب بكثير من الخيبات وهو الفنان المبدع اساسا فترك العمل الحزبي وحول طاقاته الفنية الفكرية والنضالية الى الكتابة الروائية (الرواية كما فهمها منيف وكما كتبها اداة جميلة للمعرفة والمتعة انها تجعلنا اكثر ادراكا واحساسا بكل ما حولنا).

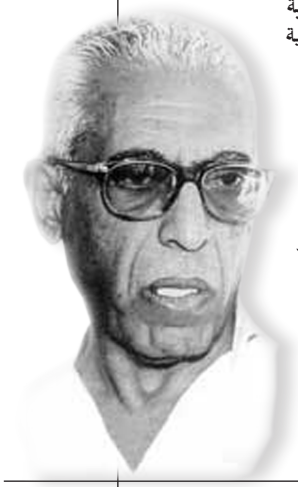

عبد الرحمن منيف: عندما يبني النص علي الصوت الواحد

تقنية سردية تثير شجارا بين الراوي والمروي له

ناظم عودة

ما دام ظني بكم سيئاً لدرجة كبيرة، قد تسألون: لماذا إذن أقصّ عليكم هذا الذي حصل؟ وماذا أريد منكم؟
ـ قصة حبّ مجوسية ـ

الراوي والقارئ

من يقرأ رواية عبد الرحمن منيف (قصة حبّ مجوسية) سوف يلحظ شجاراً لا ينتهي بين الراوي والقرّاء المفترضين، فهو لا يكفّ عن توجيه اللوم والانتقاد والوعيد لهم، ولا يعدم القارئ الحقيقي فائدة من هذا الشجار، الذي يخمّن فيه الراوي معارضة من هؤلاء القرّاء لأفعاله وأفكاره، لأنه سيئ الظن بهم لدرجة كبيرة. ويكشف هذا الصراع عن بنية سيكولوجية تتحكم في أداء الراوي، ويكشف كذلك عن الأحكام الأخلاقية التي تترتب على سلوكه، فهو يفتش باستمرار عن مسوغات لعلاقة تعدّ محظورة في نظر الأديان، كما في تشريعات السيد المسيح في هذا الشأن، التي يذكرها الراوي بنوع من الرفض. فالانحراف عن حكم من الأحكام، يفضي إلي خلق حال من التضاد بين الصورة الأصولية، والصورة الرافضة التي عليها الراوي. وهو يعلم بهذا الحرج، ولذلك يبتكر وسيلة للتخفيف من غلواء توتره النفسي، وهي تعرية منطق القارئ المعارض ضمنا لسلوك البطل. ويبدو لي أحياناً أنّ صوت القَارئ المكرّس نصّياً في الرواية، هو الصوت الداخلي للبطل، فثمة نزاع عنيف ينشب بين داخل الراوي وخارجه. فالعرف الاجتماعي والقاعدة الدينية لفعل الحبّ، لا تتهاون في عشق النساء المتزوجات، لكنّ هذا الحكم الأخلاقيّ لا يتقيد به بطل قصة حبّ مجوسية، فهو يخترق القاعدة الأخلاقية بمسوّغ سيكولوجي محض. ويؤدي به هذا الاختراق إلي صراع من نوع خاص، بين النشاط الملحوظ للقوي السيكولوجية الطليقة من أعنتها، وما يسمي بالأنا الأعلى التي تقاوم تمرد الرغبات على هذه الشاكلة. يتبني الراوي، الذي يعشق امرأة متزوجة، وجهة نظره الباطنية بقوة، فيصغي إلي صوت قلبه وحده، ويسعي جاهداً إلي تصوير الكدمات التي لحقت به من جرّاء مكابداته. فهو يشعر أنّ هذه المأساة الباطنية تستحقّ أنْ تُبلَّغ إلي القارئ بالكلمات، ليكتب (سيرة قلب) يخفق بين جنبيه، أو يريد أن يقدم اعترافاته أمام القارئ، نظير الاعترافات التي تجري في الكنائس، كأنه يشعر بخطيئة ويريد أن يكفر عنها. لكنّ العلاقة بين الراوي والقارئ في هذه الرواية، لم تتسم بالتوافق، أو الإصغاء كما في الاعترافات الحقيقية، فالراوي يواجه اعتراضاً شديداً من فئة من القراء، لكنّه يستميل فئة اخرى، وهنا يبرز تخطيط الصنعة الأسلوبية من لدن المؤلف الحقيقي، الذي أراد أنْ ينشئ حكاية من لحظة التعارض بين فئات القرّاء والراوي.

الرواية ذات البعد السردي الواحد

لا تتضمن رواية (قصة حبّ مجوسية) تعقيداً فنياً، يمكن أن يقف حجر عثرة في طريق القارئ، الذي يجمع خلال زمن قراءته مجموعة من الجمل السردية، القادرة على تكوين الفحوي النهائية للعمل من جهة، والقادرة على تكوين حكم نهائي حيال الرواية كلها. فالبناء السردي في هذه الرواية يقوم أصلاً على الصوت الواحد الباطني للراوي، ومن هنا يمكن وصف (قصة حبّ مجوسية) بأنها رواية تعتمد البعد الواحد في سرد الحكاية، وقد ساهمت هذه التقنية السردية في إثارة الشجار بين الراوي والقارئ على طوال هذه الرواية. فهذا الراوي يبني هرماً من القيم الذاتية، ويرتقي إلي قمته، وينظر إلي العالم الذي يحيط به، ولذلك فإنّ الفارق بين الأعلى والأدني هو السبب الأساسي في نشوب الصراع بين الراوي والقارئ. فثمة جزء من الصراع غير مذكور في السياق السردي لهذه الرواية، يتلاقي فيه الراوي والقارئ معا ليتجادلا حول مجموعة من القيم المتعارضة،

تشكل صلب هذا الصراع غير المذكور. فالقيم التي يعتنقها الراوي، والخاصة بعلاقته مع امرأة متزوجة تدعي ليليان، ليست قيماً معيارية ثابتة، بل قيما ذاتية محضة. وعلى هذا الأساس، فإن الراوي يقدّم نموذجين من الصراع: الأول يتبني الفلسفة الذاتية، التي تقوم على المنطق الفردي، وعلى فرضيات فرويد وهوسرل، غير الظاهرة نظريا في السياق السردي، وإنما مُضمَّنة تضميناً يتيح للراوي أن يعتنق أفكاراً ذاتية، يفسر بها قضيته التي يدافع عنها في وجه خصوم مفترضين.
والثاني (وهم القرّاء المفترضون) يتبني التفسير العقلاني للقضية الأساسية، أي عشق امرأة متزوجة. وهكذا ينشأ الاختلاف في القيم استنادا إلي هاتين الفلسفتين، الفلسفة الذاتية، والفلسفة العقلانية، وقد كان هذا الصراع الفلسفي، هو الجزء غير المذكور في السياق السردي لرواية (قصة حبّ مجوسية)، ومنذ البداية أراد الراوي أن يجد وسيلة فنية لتفجير هذا الصراع، فوضع صيغة نصّية تقوم على جعل القارئ طرفاً نصيّاً في البناء السردي.
وفي مقابل هذا الصراع الثنائي، ثمة صراع ثنائي آخر، ذو صلة بالبناء الفني لهذه الرواية هو صراع الأجناس، جنس الشعر وجنس النثر:
قلت لنفسي بنزق: أيتها العيون التي انفجرت في ظلمة الحياة التي أعيش فيها. سوف أعبدك. أنا مجوسيّ أكثر من مجوس الأرض كلهم.
صرخت دون صوت وأنا أنتفض مثل ديك مبلول: الزجاج بيننا يحصد خفقة القلب ثم يعجنها كتلة نار ويدحرجها.. ثم يأتي المطر ليذيب لذة الحلم.
ليست هذه الرواية رواية أصوات متعددة، فهي لا تكترث بأية وجهة نظر اخرى غير وجهة نظر الراوي، الذي يضيق ذرعاً بالآراء المفترضة للقراء، قال مخاطباً هؤلاء القرّاء الذين يتوهم الراوي معارضتهم، ويستبطن منطقهم وحجمهم:
وأنتم أيها الشديدو التزمت.. ماذا تستطيعون أن تقولوا عن الأفكار الصغيرة التي تحركت في رأسي؟ الخطيئة؟ ولكن أين الخطيئة؟ حتى هذه اللحظة لا أشتهيها. ووصية المسيح التي تستندون إليها لا يمكن أن تجعلوها مقصلة لتنتزع رأسي بكلّ هذه البساطة. لم أشته امرأة غيري.. كل ما أردته أن أغفو في تلك الجنة لحظة واحدة ثم أموت. من الواضح أن هذا الراوي يشعر بأن الفعل الذي أقدم عليه، أي عشق امرأة متزوجة، يخرق الأعراف الدينية، ولذلك فهو يتصور هذه المعارضة من الآباء المقدسين، ويقاومها بمنطق آخر، منطق ذاتي محض، قال مخاطباً هؤلاء الآباء المقدسين:
أيها الآباء المقدسون.. تعالوا واسمعوا اعترافات رجل حزين. الأرض مليئة بالرجال الحزاني. وحتى الآن لم تسمعوا سوي اعترافات المخطئين.. أما الذين يموتون كل لحظة.. فأنتم لا تعرفونهم... وعلينا أن ننتبه إلي التكرار الذي يكرّر به الراوي وجهة نظر هؤلاء الآباء المقدسين، الذين أصبحوا الآن في موقع القرّاء المفترضين للحكاية التي تتضمنها رواية (قصة حب مجوسية)، ويمكن أن نطلق عليهم تسمية (القرّاء المقدسون). وعندما يكرر الراوي اعتراضاتهم، فإنه يكشف عن شعوره الباطني بوطأة تلك الاعتراضات عليه، قال يخاطبهم: وأنتم أيها الآباء.. هل تحاسبون رجلا جبانا، ولا يحمل في قلبه رغبة شريرة، ويريد أن يشعل سيجارة امرأة حزينة ولا يستطيع؟ يجب أن تقولوا شيئاً. إن هذا التوجّه بالسرد إلي هؤلاء (القراء) الذين يفترض الراوي أنهم جزء من حكايته، لا يمكن تفسيره بغير رغبة المؤلف الحقيقي في أن يفجّر السياقات الثقافية والدينية والسيكولوجية المرتبطة بهذه الحكاية، وذلك جزء من التخطيط الشكلي العام لهذه الرواية، التي وجد عبد الرحمن منيف أن القارئ المفترض أو الضمني جزء منها. وعلى هذا الأساس، جاء أسلوب تكرار مخاطبة القراء في هذه الرواية، والسعي إلي فتح حوار معهم، وقد استهلت الرواية بهذا الحوار أو الشجار بصورة أدق. ولكي يكشف الراوي عن وطأة اعتراضات (القرّاء)، فقد استهلّ روايته بالشجار معهم:
وما دام الأمر هكذا.. وما دام ظني بكم سيئا لدرجة كبيرة، قد تسألون: لماذا إذن أقصّ عليكم هذا الذي حصل؟ وماذا أريد منكم؟ لكي أقطع عليكم الطريق، وأسدّ أفواهكم أقول:
إن الكنيسة الكاثوليكية، الرحيمة القلب، جعلت للإنسان طريقاً للخلاص، عندما كلفت الآباء المقدسين بتلقي الاعتراف. كما أن علم النفس المعاصر، بالضوء الخافت في غرفة الطبيب، والمقعد الوثير الذي يستلقي عليه المريض، أوجد طريقاً لإذابة العذاب.. تمهيداً للشفاء، وأنتم.. هل أنتم آباء الكنيسة أو أطباء نفسيون تتلقون الاعتراف؟ مرّة اخرى لا يهمني. أريد أن أقول ما حصل. سأقول ما حصل حتى لو نزلت السماء على الأرض. وأنتم إذا شئتم اقرأوا.. وإذا شئتم كفّوا عن القراءة.. وحتى لو قرأتم فلن تضيفوا أية صفة جديدة للصفات الكثيرة التي أعرفها عن نفسي.
إنّ القرّاء الذين يتشاجر معهم الراوي، ليسوا صنفاً واحدا، بل أصنافاً متعددة، كل صنف له تكوينه الثقافي والاجتماعي الخاص. فهو يتشاجر مرة مع (قارئ حكيم): ولكن إذا وجد بينكم حكيم أعور، له لحية تشبه خيوط العنكبوت، فسوف يقول:
إن حالة مثل هذه تعود بأصولها إلي أيام الطفولة.. إنه الحرمان من عطف الأم. نعم ماتت أمي لما كنت صغيراً.. لكن هذا الحكيم الذي يفتح فمه كضفدعة ليغرق الناس بكلمات كبيرة وغامضة تفتقر إلي شيء أساسي يكون جوهر الإنسان والعلاقة الجنسية.. يفتقر إلي الحب.
ومرة يوجّه هذا الراوي خطابه إلي (قارئ مجهول): يمكن لأي تحليل يسرف في دراسة حالتي، بحيث ينتهي إلي أشياء كثيرة، لكن الأمر الأكيد إن ما وجدت نفسي فيه لا يجد مأوي في الكلمات القائمة والبلهاء التي تموج في رؤوسكم الآن.
ومرة اخرى يخاطب هذا الراوي قارئاً يمكن أن نطلق عليه (القارئ الساخر): آه.. يمكن أن تضحكوا. اضحكوا مثل بغال تفتح أفواهها حتى النهاية. لقد سقطتُ.
ويقول أيضاً مخاطبا هذا القارئ الساخر: وأنتم لا تستطيعون أن تقولوا أي شيء اضحكوا بسخرية، ولكن من دون أن أري. وإذا علت قهقهاتهم فسوف أشتم مثل إبليس، سوف أقول لكم: أيها الخنازير، يا من تفتقرون إلي القلوب، يا من بالت عليكم أمهاتكم لكي تشفي الدمامل المنتشرة فوق صدوركم ووجوهكم.. لن أقول هذا فقط، سوف أقول أكثر: أنتم.. يا أربطة العنق.. سوف أشنقكم بهذه الأربطة ذات يوم. لن أكون رحيما. الرحمة لا تعرف طريقها إلي قلبي. ومن تريدون أن أرحم؟ الصدور المليئة بالقيح؟ أنتم؟ لا تخافوا.. سوف أتصرف كوحش.
ومرة يخاطب هذا الراوي نمطاً من القرّاء يمكن أن نطلق عليه (القارئ القاسي):
وأنتم أيها الناس.. يجب أن تجلدوني مئات الجلدات. لا تكونوا رحماء معي، وأنا لا أستحق الرحمة أبداً.. ابصقوا عليّ.. لو أن كلمة قلتها، لو أن مسّة قدم اخرى، ابتسامة شجاعة... آه اتركوني، لقد تعذبت أكثر مما أطيق.. والآن، وبعد مرور السنين، إذا سقط المطر.. إذا لم يسقط أتعذب.
من خلال هذه الطائفة من القرّاء الذين افترضهم الراوي يعارضون ما يقوم به، نستطيع أن نكشف عن الطابع السيكولوجي المتأزم لهذا البطل، ولكي يجد الراوي أسلوبا أكثر نجاعة في بناء منطقه الداخلي، فإنه يبتكر طريقة سردية خاصة، تتناسب مع بناء شخصيته المزدوجة، شخصية الخطّاء الذي يعرف طبيعة الخطيئة.
ومن هنا، فإنّ التصميم الشكلي لرواية (قصة حب مجوسية) لا يخلو من الاجتهاد الجمالي في الاعتقاد بأنّ السرد الروائي الحديث لا يتواني عن التداخل الإجناسي، أي التداخل بين جنسين من أجناس الكتابة الأدبية، لإنتاج جنس هجين. وقد شاعت هذه الدعوة إلي التداخل بين الأجناس في الأدب العربي الحديث، وأراد بعض الكتاب العرب أن يلغي الصفة الجنسية للنوع الأدبي والاكتفاء بتسميته (نصّ). وقد تشتت الرد في هذه الرواية على جنسي الشعر والنثر، فالراوي ليس شخصا ذا سلوك عقلاني، بل هو شخصية رومانسية، ذات حساسية مفرطة. ولذلك فإنّ رواية (قصة حب مجوسية) ذات خصائص أسلوبية تقترب من الخصائص الأسلوبية للرواية الرومانسية، بحسب اصطلاح تودوروف، فهي رواية تتصف بـ(التحليقات الغنائية، والخواطر المجردة). ويمكن أن نلحظ أن الراوي نفسه في هذه الرواية يتمتع بهذه الخصائص الأسلوبية، فهو شخصية رومانسية تحلّق عالياً برغباتها، ولا تكترث بالتعارض الذي ينتج عن تلبية هذه الرغبات.

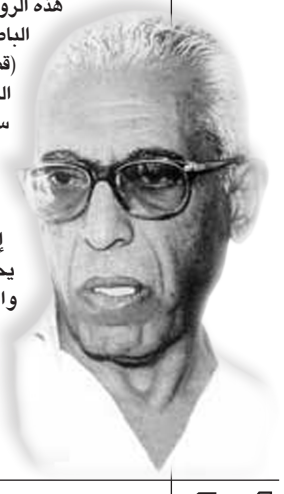

الأشجار واغتيال مرزوق سفينة أحزان الوطن

العودة الي رواية لم تترك موقعها

كليزار أنور

لا يخفي أن الروائي الدكتور عبد الرحمن منيف هو الاسم المرادف للنجاح الواعي في الرواية العربية ويعد علامة بارزه على خارطة الإبداع العربي. تقنية الرواية اعتمدت أسلوب التقطيع السردي، فالرواية تتكون من قسمين: القسم الأول من (٢) وحدة والقسم الثاني من (٢٢) وحدة ويوميات مدونة بأسم البطل تبدأ من (الثلاثاء/٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ الثلاثاء ـ ٨ أيار (مايو)) وتنتهي الرواية بالخاتمة وهناك المفارقة الكبرى!

استخدم المؤلف ضمير المتكلم ليتجاوب القارئ معه، ويصغي باهتمام لتلك الحكاية حكاية إنسان عربي يبحث عن عمل، أي عمل ليكون مصدر رزقه اليومي فالإنسان قضية والعمل قضية الإنسانية بأجمعها!

إيقاع السرد هادئ هادئ بعفويته البريئة الصادقة، يستمر هذا الإيقاع الفني على الرغم من كل التحولات والأزمات التي تواجه بطل الرواية/ الإنسان ـ الإنسان العربي ـ وكأنه جسر أراده المؤلف أن يكون الأرضية الحقيقية لبنية الرواية لغة الحوار ذكية ببساطتها، بحواراتها العادية وقلت: ذكية ببساطتها، لأن لغة الحوار اليومية هي الأقرب الى القارئ وكلنا نتمني أن تتحول قصصنا ورواياتنا مثل (الخبز) في أيدي الناس! وابرز مثال لذلك الشاعر الكبير نزار القباني، فبلغته اليومية البسيطة، المتداولة تحول شعره الى قماش شعبي يرتديه كل الناس!

إذا كان واعيا جدا باستخدامه هذه اللغة، وبهذه اللغة استطاع أن يبني له جسرا متينا بينه وبين القارئ العادي والنخبة!

القسم الأول من الرواية يبدأ بالسفر سفر البطل من اجل العمل (وأنت في هذه الساعة المتأخرة تتحسس جيوبك للمرة الألف، لتتأكد أن كل شيء موجود: جواز السفر، بطاقة القطار، الشهادة الصحية، والموافقة على العمل) ص١٥.

ويدقق ـ بامتعاض من الروتين العربي ـ قي أوراقه التي أنجزت أخيرا، فماذا يعني الزمن بالنسبة لنا أو لهم أو للآخرين (لأحد يصدق كم انتظرت حتى حصلت على هذه الأوراق اللعينة نعم لأحد على وجه الكرة الأرضية يتصور أن أوراقا مثل هذه، لا يكلف إنجازها نصف ساعة، تنتظرها أكثر من سنتين) ص ١٥.

ولاعتبارات كثيرة يسافر بالدرجة الثانية، مغادرا بلده على أن لا يرجع أليه مرة أخرى حتى وان طرد، فسيفتش عن بلد آخر المهم أن لا يعود!

البطل/ منصور عبد السلام أستاذ جامعي متخصص بالتاريخ المفارقة تكمن في اسمه والعمل الذي سيغادر من اجله اسمه (منصور) وهو مهزوم في بلده والعمل (آثاري) والأثر يتمسك بالأرض وهو راحل دون التفكير حتى بالعودة!

يلتقي في القطار مع عابر سبيل اسمه الياس نخله يعمل مهربا بسيطا يتجاوب معه إنسانيا رغم كل الفوارق بينهما! (كان عمري أربعا وعشرين سنة كنت مفتونا بالقمار بدأت القضية سهلة، صغيرة مثلما تبدأ أشياء كثيرة في هذه الحياة، حتى أن الإنسان لا يظن وهو يقبل عليها أن حياته ستتغير كنا أول الأمر نلعب على الجوز، ثم بدأنا نلعب على الدجاج وجاء يوم لعبت فيه على العجول الثلاثة التي كانت لدي ولعبت في النهاية على الأشجار) ص٥٣.

الأشجار رمز الحياة والديمومة والنماء والتي شبهها والده وهما يغرسان الأشجار في الأرض بأنها مثل الأولاد واغلى ولا يوجد كائن في الأرض يستطيع أن يقتل أولاده!

وهو بكل بساطة قامر بها!

أراد أن يثأر لأشجاره عندما قطعوها ثأر لها بطريقته وفر هربا الى الجبل المحاذي لبلدته (الطيبة) وبقي هناك اكثر من سنتين يعيش في مغارة مع حيوانات بريئة الفته بعد استدراجها وبعثوا أليه اكثر من مرة مع الرعاة لكي يعود ولم يسمع! وفي آخر مرة وصله مرسال يقول: بأن أمه تموت تسلل الى البلدة ليلا وكانت تنام في الفراش، ولكنها لم تزل معافاة (فما كدت انظر أليها حتى أفاقت، أحست بوجودي، أن الأمهات يا صاحبي يمتلكن إحساسا خارقا بالأشياء، أنهن مثل الأشجار لا يتكلمن كثيرا، ولكن يعبرن عن أنفسهن بطريقة لذيذة.

قلت لها: لماذا كذبت على يا أمي؟

قالت: ما كنت

أستطيع أن أراك لو لم أكذب حاولت مرات كثيرة، ولكنك لم تسمع، ولم تأت

قلت: هل تكذبين؟

قالت: كذب الأمهات من أجل أن يرين أولادهن صلاة) ص ٦٣.

ويغادر البلدة راحلا الى الجبل مرة أخري دون أن تثنيه توسلات وبكاء أمه وبعد ثلاثة أيام جاءه نفس الراعي يبلغه بموت والدته ويعود بعد أربع سنين ويفتح فرنا، لكنهم سخروا منه وقالوا، انظروا انه يحمل التمر الى مكة!

فشل يقوده الى فشل أخر في العمل، في الزواج، في كل شيء! رحيل وعودة ماذا بعد هذا كله ؟! لا شيء! إنها الحياة ولابد أن تعاش.

في القسم الثاني من الرواية يستخدم المؤلف ضمير الغائب يتحدث لنا راو عليم عن تجربة منصور عبد السلام لقد جاع وتغرب وتعب من اجل لقمة الخبز التي تحولت هي نفسها الى سراب لانه ـ بكل بساطة ـ إنسان شريف!

ومن أجل هذا يسافر نحو الجنوب ليعمل مترجما في بعثة آثار وحتى حقه البسيط في السفر حرم منه ثلاث سنوات، فقط لانه إنسان شريف! (منصور يغادر الوطن أذن يغادره من اجل أن يظل حيا وشريفا) ص١٨٢.

يكمل رحلة السفر وحده لم يجد في القطار كله آنسانا يتحدث معه بعد أن نزل الياس نخله في محطة الحدود.

وبعد هذه المقدمة من الراوي يتدخل منصور عبد السلام بنفسه ليروي الحكاية حكايته! حكاية يتمه، وتربيته، ونشأته، ودراسته، وعلاقاته بكل من حوله، وقراءاته وحكاية سجنه السجن من أجل أفكار! يتحدث عن النساء في حياته، عن من أحب والغريب أنهن يتزوجن قبل أن يفاتحهن حتى بأمر حبه لهن يالضعف الرجل هكذا هو الرجل الشرقي يرغب في المرأة ـ التي يحب ـ أن تكون شجرة تبقي الى الابد في انتظاره!

ويسافر الى أوربا لاكمال الدراسات العليا، ويلتقي بكاترين، انهما يشكلان عالمين متناقضين بكل ما يحمله تناقض الشرق عن الغرب! التقيا في نقطة ليفترقا بعدها، كل الى حياته.

ويعود، يعين في الجامعة مدرسا لمادة التاريخ المعاصر (التاريخ قصة طويلة وحزينة تمتلئ بالأكاذيب، وقد كانت بهذا الشكل منذ البداية، وسوف تستمر هكذا!) ص ٢٩١.

ويعفي من العمل في الجامعة بعد ثلاث سنوات تدريس لانه أراد أن يفهم طلابه حقيقة التاريخ! (أرى ركاما من الأكاذيب والافتراءات، ولا أرى شيئا غير ذلك! ليست هناك وقائع صحيحة بالمرة) ص٣٥.

ويحاول أن يبحث عن عمل ليعيش منه، أي عمل لكن دون جدوي! فجميع الأبواب مغلقة دونه حينما يعلمون بأنه مسرح من الجامعة! ويفكر بالحل الوحيد السفر! (لايهم الى أين حتى الى الجحيم، فقط أريد أن أبقى حيا) ص ٣٢٥.

(من يصدق إنني انتظرت سنتين وسبعة شهور من أجل جواز سفر؟) ص ٣٢٦.

وما أن يصل الى موقع العمل حتى يبدأ بتدوين يومياته التي تبدأ بيوم الثلاثاء: ٧ تشرين الثاني وتنتهي بيوم الثلاثاء: ٨ أيار (مايو).

ويعلم من الجرائد التي تصل أليه بأن مرزوق مات بل قتلوه! من هو مرزوق ؟! ومرزوق ليس سوي رمز! وهذا يكفي!!! وكانت (الخاتمة) مفارقة الرواية وهنا تكمن قوة عمل الروائي الدكتور عبد الرحمن منيف أن منصور عبد السلام بعد أن أكمل هذه الأوراق أطلق النار على شبحه في المرآة! واتصل صاحب الفندق بمستشفي المجانين وخلال نصف ساعة، جاؤوا وأخذوه!! وصاحب الفندق سلمها الى أحد الصحفيين من أصدقائه! (أنشر الأوراق الآن ولم أفعل شيئا من نشأته أن يغير في معناها سوي أني رفعت بعض الأسماء وبعض الكلمات البذيئة) ص٣٨٢.

لى الرغم من كل التحولات والأزمات التي تواجه بطل الرواية/ الإنسان ـ الإنسان العربي ـ وكأنه جسر أراده المؤلف أن يكون الأرضية الحقيقية لبنية الرواية لغة الحوار ذكية ببساطتها، بحواراتها العادية وقلت: ذكية ببساطتها، لأن لغة الحوار اليومية هي الأقرب الى القارئ وكلنا نتمني أن تتحول قصصنا ورواياتنا مثل (الخبز) في أيدي الناس!

في يوم ما، إذا خُلق فنان في بلادنا وعرف معنى القهر والغيظ معا ولحظة التحدي فسوف يجسد لحظات لا يمكن أن تتاح لأي فنان آخر في العالم.

منارات

التحرير
علي حسين

التصميم
مصطفى محمد

الاشراف اللغوي
محمد السعدي

الغلاف بريشة الفنان العراقي علي المعمار